حكاية رجل عجوز

كلما حلم بمدينة ..مات فيها

قصص قصيرة

طارق إمام

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

طارق إمام

حكاية رجل عجوز كلما حلمبمدينة.. مات فيها

تمّ إنتاج الكتاب الإلكتروني من قبل Hekayh
نشر الكتاب الإلكتروني 2017 ب Booqla
نشرت بواسطة دار نهضة مصر للنشر
حقوق التأليف والنشر © بواسطة دار نهضة مصر للنشر

حق النشر

حكاية رجل عجوز

كلما حلم بمدينة .. مات فيها

طارق إمام

إشراف عام: داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية .أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

الترقيم الدولي:1-4170-14-977

رقم الإيداع: 2009/9983

الطبعة الأولى: يناير 2010

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

تليفون: 33466434 - 33472864 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com

إهداء

إلى البنات: لبنى وسارة وجومانة.

إلى أبي وأمي.

إلى أصدقائي.

.....

أي سـر ذلك الذي يجعل مجرد الرغبة في رواية القصص تتحول إلى هوى يمكن لكائن بشـري أن يموت من أجله.. رغم أنه في نهاية المطاف ـ إذا ما أمعنا النظر ـ لا ينفع في أي شيء؟!

جابرييل جارسيا ماركيز

مدخـل صانـع الصـور

لا يذكر المُصوّر العجوز متى استغنى عن عينيه تمامًا، مكتفيًا بحدقة الزجاج، وبصوت «الفلاش» الأليَف الذي كان يخبره مرةً بعد أخرى أن مهمةً جديدةً قد انتهت.

الزبائنُ لم يلحظوا شيئًا. لم يدر بخلدهم أن عينه اليُمنى المفتوحة حدقةٌ عمياء، بئر ظُلمةٍ يرقد فيها الخواء.. وأن العينَ اليُسـرى المغلقة دائمًا كي لا يهتز المشهد، ربما ترى أفضلَ.

المُصوّرُ العجوز لا يذكر من أيامه سوى لحظة ولادته. لا يزال يسمع صرخةَ الحياة وهمهماتِ الأهل وقطرة عرق باردة سالت من جبين الأم على جسده قبل أن تتوجه في اليوم التالي إلى مقبرتها.

شاخ فجأةً، كأن الحياة لم تكن.

تعوَّد أن يتأملَ الظلمةَ ويفكر: لو جرب الناسُ التحديقَ في العتمة فلن يشيخوا؛ لأنهم سيحتفظون بأعينهم فترةً أطول.. لن تكتظ ذاكرتهم بالضوء الذي يسيل في لحظة كطعنةِ برق، ليُغرِق غرفَهم.. ويترك تاريخهم مثل وعاءٍ فارغ.

في قرارة نفسه أيقن أن الصباحَ لعنة من يستيقظون مبكرًا.. وأن المساءَ وداعٌ ثقيلٌ غير أنه يليق بيقظة حبٍّ منسي، بأرصفةٍ تُبدّل أماكنها.. وبأثرِ وردة.

كان مدينًا للظلام بكل شيء.. على الأقل لأنه شاهد ماضيه في حلكته، غائمًا بلون «السيبيا».. وغامضًا كزائرٍ لم يأت.

حبةُ العَرَق القديمة لا تزال ترقد بين عينيه.. ندبة خافتة تؤلمه كلما لامسها كأنه وُلِد للتو.

لم يكن يخشى الموت قدر ما كان يخشى الحياة.. فكلما مات أحد زبائنه كان شبحه يتسلل إلى غرفة التحميض، يسترد صوره، ويترك بدلاً منها ملابسه التي لن يحتاجها في الآخرة.

هكذا تحول المكانُ يومًا بعد آخر إلى دولاب ملابس ضخم، بروائح الأنفاس المخزونة، ببقايا الشهيق والزفير لبلدةٍ كاملةٍ تحت الأرض.. ليكتشف المُصوّرُ العجوز بحسـرة أن المكان الذي أعده ليكون مقبرته لم يعد يصلح إلا للحياة.

كفافي-س

بتكاسل أشار لنا الحارس الأسود بالدخول، قبل أن يغفو من جديد تاركًا رأسه المعمم يسقط على صدره، وكان علينا الآن أن نواجه الهواء الكثيف لبيت الشاعر.. نتردد في الخطى.. نتعثر.

كانت النوافذ مفتوحة. في كل حائط نافذة تخترقها الريح البحرية المنداة مُطَيّرةً كل الأوراق من على مكتبه. بعض الأوراق كانت تتساقط على الأرض وبعضها كان يحلق إلى ما لا نهاية في سماء الغرفة، يدومه الهواء، قبل أن تستقر ورقتان أو ثلاث على المكتب الخشبي العتيق من جديد.. أما البقية الباقية فكانت تتطاير بخفة عابرة النوافذ إلى الخارج، إلى سماء المدينة الشتائية التي بدت الآن غريبة ونائية أكثر من أي وقت مضى.. كأنها سماءُ مدينةٍ أخرى في حلم.

كانت تلك هي غرفة جلوسه التي تتفرع منها الغرف الأخرى، غرفه السرية حيث عرف اللذة والألم.. أما النوافذ التي اقتربنا منها ملاحقين الوريقات المتطايرة - والتي عبثًا حاولنا أن نقبض على إحداها في تطايرها - فكانت كل منها تُطل على مكان مختلف كأن كل نافذة كانت تخص مدينة لا تطل عليها الأخرى. مستشفى صغير بحديقة في فضاء رمادي تطل عليه سماءٌ خالية. لا سُحب ولا طيور ولا شمس مخبأة تطل على استحياء. كنيسة ضخمة بُنية تقرع أجراسها بينما تتساقط أوراق الشجيرات المحيطة بها، ينهمر فوقها المطر بلا هوادة ليُسرع الرهبان خطاهم في طريقهم للدخول، تتكاثف عليهم أوراق الشجر البُنية فتُحَوّلهم لأشباح خريفيين بلا زمن. عَبْر النافذة الثالثة أمكننا أن نلمح البارات المتراصة.. تصلَ لمسامعنا المشاجراتُ الصغيرةُ وتغنجاتُ العاهرات اللائي تبدأ أنفاسهن في الليل.. واجهت أعيننا نقاطُ الضوء الأبيض منبعثة من أعمدة الإنارة التي لم تَحُل دون العتمة المحكمة. الشيء الوحيد الذي كان يمكن رؤيته عبر النوافذ الثلاثة؛ ودون أن تتغير زاوية رؤيته هو المقابر. سكون عميق يخفي آلاف الخطى التي طالما عبرت شوارع تلك المدينة: مدينة الأنبياء والعشاق والحالمين والقتلة. أدرنا ظهورنا بعد أن استسلمنا لانفلات كل الوريقات من بين أيدينا.. قصائده المخطوطة التي رأيناها بأعيننا اليائسة بينما تغادر للأبد، تتخلى عنها كلماتها فور اقترابها من حواف النوافذ لتتحول إلى وريقات بيضاء.. ترفرف فوق السماوات المتنائية التي لا تشبه إحداها الأخرى، فوق المستشفى والكاتدرائية والبارات، وينطلق بعضها إلى سماء البحر. لعلها - بعد لحظات أو ساعات أو أيام أو شهور- تستقر في مدن أخرى.

على المائدة الدائرية العتيقة كانت هناك أطباق اتسخت ببقايا طعام: أهي آخر وجبة تناولها الشاعر قبل موته، أم هو الحارس يتناول طعامه هنا بلا اكتراث؟ حاولنا تقليبها وتشممها غير أننا لم نستطع حسم الأمر. كانت بلا رائحة، حتى ما فيها من بقايا طعام لم نتعرف أبدًا على كنهه.. ولكننا حين انتبهنا لفوران القهوة على موقد صغير بجوار المكتب، تأكدنا أن ذلك النائم بلامبالاة عند باب البيت محض عابث أبله.

كنا الآن في بيت الشاعر الذي أبى إلاَّ أن نقضي لياليا الثلاث الفائتة مشوشين، بأحلام سيئة وخوف مجهول، وها هو يواجهنا بتشوش جديد لا قِبَل لنا به. فور أن وضعنا حقائبنا الصغيرة في غرف الفندق الساحلي، وبمجرد أن فضضناها بادئين بترتيب

أشيائنا في الغرف، اكتشف كلٌّ منا ضياع نسخته من مختارات الشاعر التي صحبناها معنا في رحلتنا من العاصمة إلى هنا، وظللنا نطالعها طوال رحلة القطار.. ثم أعدناها بحرص إلى حقائبنا عندما تبدَّت واجهة المحطة وأبطأ القطار سيره استعدادًا للتوقف. فيما عدا ذلك كانت أشياؤنا مكتملة.. حتى الكتب الأخرى كانت كما هي.

صُعقنا، واستعدنا بشحوب هيئة رفيقنا الفضولي في القطار ـ من أبناء هذه المدينة ـ الذي نبَّهنا حين شاهد انهماكنا في القراءة أثناء الرحلة أن لعنة الشاعر ستطاردنا حتى يسرق نسخ كتابه. قال إنه منذ موته يغتاظ كثيرًا كلما صدر كتابٌ له، فهو لا يحب ذلك. سألناه ـ وقد أنصتنا لعبثه الرصين ـ إن كان شاعرًا، فأجاب بهدوء أن المدينة كلها تعرف ذلك؛ لذا امتنع حتى أصحاب المكتبات عن عرض أي كتب له، إذ كانوا يستيقظون ليجدوا الواجهات مهشمة والنسخ منزوعة منها ومن الأرفف الداخلية، أما بقية الكتب التي تخص مؤلفين آخرين فكانت نسخ منها أيضًا تختفي ـ نسخة واحدة من كل كتاب ـ فالشاعر مغرم بالقراءة ولا يستطيع مقاومة اقتناء كتاب جديد!!

دون وعي منا وجدنا أنفسنا ننصت له، مستعيدين هيئة الأحفاد الذين يستمعون لحكاية جدة طاعنة، يعرفون كذبها غير أنهم يقاومون النوم حتى تفرغ منها. قال إن الشاعر منذ موته ينهض مبكرًا، يغادر مقابر اليونانيين ليتجول في المدينة، يخطف نسخ جرائد الصباح بخفة ـ فالموتى كما تعرفون لا يحتفظون بالعملات الورقية في جيوبهم ـ يتركه الباعة: بعضهم يعرف أنه الشاعر، والبعض الآخر يعرف أنه ميت.. وفي الحالتين لن يجرؤ أحد على اعتراضه. بعد ذلك يتوجه إلى بيته، يلقي تحية مقتضبة على الحارس النائم ـ الذي تنتشر في المدينة أنباء جنونه ـ يجلس قليلًا إلى مكتبه ليكتب، يكون الحارس قد أعد له طعامًا خفيفًا، يتناوله ثم يطلب القهوة.. يتركها في أحيان كثيرة ـ فأنتم تعرفون أن الموتى يحبون رائحة القهوة أكثر مما يحبون مذاقها ـ وقبل أن يغادر يفتح نوافذ غرفته الثلاث الكبيرة، يترك الريح تتخبط بين الجدران عابثة، في اليوم التالي يرى ما تبقى من الأوراق على مكتبه فيعرف أنه شعر جيد، أما ما يغادر الغرفة فينساه بلا ندم. قبل عودته للمقابر ـ ويكون ذلك عادةً عند الغروب ـ يختار واحدًا من أماكنه الثلاثة القريبة: أحيانًا يذهب إلى المستشفى، يجلس في الحديقة متأملاً المرضى.. أحيانًا يتوجه إلى الكاتدرائية الخريفية التي لا تكف أوراق أشجارها عن التساقط، و لا تنتهي الأوراق المتساقطة رغم ذلك. يعترف بأخطاء اليوم، وغالبًا ما تكون آثامه هي قصائده ذاتها.. أما في الأيام التي يكون فيها مبتهجًا، فيتوجه للبار.. يتخذ طاولة منزوية وما إن يبلغ النشوة حتى يبدأ في ترديد قصائده الأخيرة التي قاومت الريح بصوتٍ عالٍ، مشروخ، يخص الأموات.

هل جاهدنا أثناء إنصاتنا لنُخفي ـ دون جدوى ـ ابتسامات عابثة؟! هل اعتبرناها أضغاث أحلام يقظة لمسافر مجهد؟ ربما انفلتت أيضًا ضحكة من أحدنا استقبلها هو بصمت خجل، وأدار وجهه متظاهرًا بالتطلع عبر نافذته قبل أن ينحني بأدب على شخص تفصلنا عنه عدة مقاعد، تبادل بعدها مقعده معه، وقرب الوصول، وبينما تلفتنا بحثًا عنه لتقديم كلمات اعتذار نعرف أنها غير مُجدية فوجئنا بمقعده شاغرًا وظل كذلك حتى توقف القطار.

قررنا أن تكون زيارتنا لبيت الشاعر هي آخر ما نفعل بعد أن حدسنا بأن شيئًا غير عادي يحيط بنا. كنا نتشارك حلمًا واحدًا نستيقظ منه صارخين في الوقت ذاته: الشاعر

يقبض علينا بكفّ عظمية هائلة.. يعتصر الجسد فيها حتى يحوله لورقةٍ مستوية.. يضعها أمامه بهدوء ويخطّ عليها قصيدة جديدة. ثم ينصرف فاتحًا النافذة لتطير الورقة. ترفرف قليلًا في الهواء ثم تستعيد هيئتها الإنسانية، قبل أن يسقط الجسد على الأرض غارقًا في الدماء.. وها نحن نواجه رياحًا هوجاء بدأت تقتلع المكتب الضخم نفسه وترتفع به عن الأرض. كانت تبرز الآن نسخ من المختارات التي نعرفها جيدًا، تسبح أمام أعيننا، نرى ملحوظاتنا المكتوبة بخط اليد وتواريخ قراءاتنا للقصائد تسقط منها، تتعلق قليلًا أمام أعيننا قبل أن تتحول لبقع صغيرة من الحبر. تستعيد الأغلفة تماسكها الذي جعدته أصابعنا، وكذلك الصفحات المثنية عند قصائد بعينها تستوي من جديد، قبل أن تتقافز على المكتب الذي صارت اهتزازاته أشد عنفًا.. كانت الجدران أيضًا تهتز، اصطفقت الأبواب المؤدية إلى الغرف الداخلية وشاهدنا نساء وأطفالاً يتدافعون، يحملهم الهواء، يحلقون بطريقة مروحية أعلى رءوسنا.. ويخرج الشاعر في كل مرة ليقف عند ركن. واحد.. اثنين.. ثلاثة.. وجه واحد على أجساد عديدة راحت تحتل الغرفة حتى لم نعد نعرف أيها الشاعر وأيها أشباهه. كنا نستعيد ـ مع تحديقنا في وجوهه ـ هيئة رفيق القطار العابر.. كيف لم ننتبه من قبل؟!الوجه النحيف المائل للزرقة، البذلة الكتانية العتيقة الأوسع من الهيكل المختبئ فيها.. الملامح الدقيقة واللكنة الغريبة في عربيَّته غير المتقنة.

كنا نقاوم ـ دون جدوى ـ تيار الهواء الذي بدأ يعلو بأجسادنا عن الأرض. تنهار قدرتنا على المقاومة، بينما ترفرف أجسادنا باتجاه النوافذ.

كوليرا

بينما كانت السفن تتأهب لمغادرة الميناء عند الفجر، وبعد أن أعد الجميع أنفسهم لمغادرة المدينة، صدرت الأوامر بأن يظل كل شيء على ما هو عليه. كان هو يقف حينها عند رصيف الميناء، يزيحه الحمالون المتسارعون بالحقائب الثقيلة: يريدون كسب أكبر قدر من المال في أقل وقت ممكن.

انتهت حرب، وقد تحل أخرى.

يفكر: الحرب تدار في غرف، ويختبئ منها الناس في غرف أيضًا. لا أحد يرى الحرب إذن، ومن يراها لا يستطيع أن يحكي عنها، لأنه حتى إن لم يمت فإنه لن يحيا. يترك أفكاره التي قرر منذ زمن ألا يعود إليها. هناك الآن المدينة، جميع الغرف بعيدة.. وحتى لو كانت المدينة نفسها غرفة كبيرة، وخطرة، فإنها تمكنه من النظر لأماكن أخرى ترقد على الشاطئ الآخر.

رأى خطوات سيدات المجتمع الذاهبات إلى أوروبا. رأى قُطَّاع الطرق والحالمين والهاربين في تسللهم المتفق عليه. كان مشهداً مدهشًا، وقد حوَّل الفجرُ الغامضُ مقدمات السفن لأشباح غارقة في توحدها.. تواجهه كأسماك ضخمة مستسلمة. تشبث بملابس حمَّال، كان يريد أن يمنحه قروشه القليلة مقابل أن يُصعد به إلى السفينة للحظات.. ورغم أنه كان ضئيلاً فإنه أخل بتوازن جرم الرجل الضخم، فسقطت الحقيبتان الضخمتان اللتان كان يحملهما، ولم يجد الرجل الحانق مناصًا من صفع ذلك الطفل الأحمق الذي ظل محدقًا فيه بعينين مندهشتين تحجرت فيهما الدموع.

أي ولعٍ كان يدفعه لمراقبة السفن؟

يعبر شوارع المدينة الخلفية الضيقة. يعبر الروائح الحريفة والزحام، والسيدات المتشحات بالسواد في جلبة الأسواق، يتلفتن كل حين بحثًا عن أطفالهن المشاكسين. يغادر العالم الضيق للأزقة والحارات ورائحة التراب ويخطو باتجاه الكورني-ش. يقطعه خفيفًا وقد بدأت المدينة العالقة بملابسه تغادره، وتودع كيانه، بينما يدنو البحر.

لا يعير التفاتًا أيضًا لمراهقين يمشون بأناة مشبوكي الأيدي.. أو يرتاحون على الدكك الخشبية المواجهة لسور البحر الحجري.

يعرف لحظات الحب المختلسة تلك.. يعرف الوردات المدفونة في صفحات الكتب المدرسية والصور الفوتوغرافية الموقعة بإهداءات وجلة، تنام في أعماق الحقائب وحافظات النقود، تحت الوسائد وفي عتمة الأدراج.. يعرف هؤلاء الذين لايزالون يصنعون ذكريات مزدحمة قد تعينهم على أيام وحدة طويلة قادمة.. يفعلون ذلك دون وعي منهم.. ما زالت الدنيا واسعة كالبحر.

يتركهم ليقف على حافة السور الحجري، يُحدّق إلى البحر من أعلى. يصيبه العمى للحظات حين تباغت عينيه التماعةُ الشمس الحَادة على المياه.. يستمتع رغم ذلك.. مُطمئنًا لتلك الإغماضة التي تتحرك في عالمها الأسود بؤرُ ضوءٍ ساطع تظل تخاتله حتى بعد أن يفتح عينيه، ثم يترك جسده للهواء الفاصل بين السور والرمل. رفرفةٌ مرتجلة

يغمض فيها عينيه على شموسهما، حتى يحس جسده ساكنًا مبللًا بالندى البحري وموحولًا بالرمل. لحظتها فقط يستشعر البحرَ أعلى من مستوى بصره، متلقيًا موجات الزبد الشهباء الملحية كثعبان عاجز. تهدر في تقدمها ثم تنسحب للخلف بوشيش هامس، خجل. حواسه مفتوحة على الملح. في هذه اللحظة قط يستطيع تخيل السفن من الداخل: موائد المقامرات الدائرية التي يستعين المسافرون بفوضاها على ليالي البحر الطويلة.. قصص الحب الطارئة، الخطرة.. يرى وجوه المغامرين والحالمين والباحثين عن هواءٍ آخر.

يظل هكذا إلى أن يداهمه الغروب. فقط عند الغروب ينتهي البحر وتبدأ المدينةُ.. تلتصق من جديد بملابسه وتبدأ في التسلل إلى أنفاسه. البحر يصير صفحةً معتمةً لا تعكس إلا أضواء بعيدة مشوشة يعجز عن تحديد كنهها أو مواقع انبثاقها.. لعلها في مدنٍ أخرى تتحدث لغات لا يعرفها.هي قط تبدو إشاراتٍ غامضة آمرة.. ليستدير باستسلام مغادرًا الشاطئ.

أُرجئ كل شيء، وهدأت ثورة النمل المتسارع. انزوى الحمَّالون في بقاع متعددة يحصون نقودهم بأصابع مبللة. ساد حنق. قامت بعض المشاجرات ورأى الأسلحةَ البيضاء تُشهر. سمع أصوات أعيرة، ولكنه لم ير بقعة دمٍ واحدة.

هل كانت الكوليرا؟ ربما.. يذكر أن المدينة بدت في تلك الأيام كأنما تغادر بأكملها.. تترك خلفها بيوتًا خاويةً وخسارات بامتداد الشوارع. هل كان الغجر؟! كانوا يجيئون ويقيمون بمناطق بعينها من المدينةً، يشترون السمك ويلتهمونه نيئًا. نساؤهم جميلات محلولات الشعر، أجساد متماسكة قصيرة مربوعة ووجوه منحتها شموس الترحال غموضها وفتنتها. كان الرجال يذهبون إلى هناك ويعودون شاحبين، وما هي إلا ساعات قلائل حتى تفقد أجسادهم كل سوائلها، تتقلص عضلات أرجلهم ويتقيئون بلا نهاية، قبل أن يتحولوا بمجيء الصباح إلى أجساد مسجاة. هذه هي لعنة الغجر التي يمنحونها للمقيمين في المدن.. الجبناء.. يتركون لهم النساء بابتسامات متفق عليها، حسب قيمة الهدية، ويعرفون أن النهاية وشيكة. حتى أبوه، شاهده وهو يُنقل من منازلهم إلى المقابر. هل كانت بداية حرب؟! ربما.. لم يعد يذكر. كم من الحروب والطواعين شهدها ومرت على وجه هذه المدينة تاركة في كل مرة ندبة جديدة وجرحًا غائرًا؟! كل ما يذكره أن المدينة كانت طُرقات للأشباح.. كان الأشخاص يموتون في الشوارع.. بعد الظهيرة كان البحارة يملئون شوارع الميناء، يبدون واثقين مبتسمين.. وسواء كانت الكوليرا أو الحرب أو أية كارثة أخرى من تلك التي تسقط من السماء أو تتسلل عبر البحر، فإنهم كانوا يتحركون بهدأة متأبطين نساء لا ينتمين بكل تأكيد إلى هذا الجزء الحار من العالم.. فبشرتهن بيضاء مشبعة بحمرة، عيونهن بلون البحر وشعورهن المنسدلة على أكتافهن ذهبية.. يحتل النمش وجوههن وأذرعهن العارية، طويلات جدًّا وأكثر ميلاً إلى النحافة.. لسن مثل نساء هذه المدينة السمراوات البدينات، وليس على وجوههن ذلك الحزن الذي يجعل كل الوجوه متشابهة مهما اختلفت ملامحها.

بدأ البحارة يتوجهون إلى الحانات. كانت عملتهم هي الذهب: هذه هي العملة الوحيدة التي لا تتغير بتغير المرافئ. عرقهم له رائحة السمك الطازج. عيونهم تلمع غير أنها متعبة.. لا يستطيع أحد تحديد إلى أي البلاد ينتمون ولا في أي مناخ أطلقوا صرخة ميلادهم. لهم جميعًا لون الجلد الحنطي نفسه، وجوههم تنتشر فيها البثور العميقة. يلهجون بلغات

متداخلة تبدو ـ لكثرة ما تحدثوا بهذه الطريقة ـ لغة بدائية تخصهم وحدهم، وحتى في هذا لم يكن أحد يجد صعوبة في فهمهم.. كان الذهب يتكفل بكل شيء.. كأنه كان يقيهم خطر الأوبئة والحرب! ففي كل صباح كانت المدينة تستقبل جيلاً جديدًا من الجثث لم يكن بينها أبدًا واحد منهم.. حتى أماكن الغجر طرقوها بهدوء وعادوا منها أكثر شبابًا، وصار حديث النساء المتشحات بالسواد في كل بيوت المدينة– التي لم يَخلُ احدها من جثة أو أكثر– هو هؤلاء الأشباح النحاف الذين يمضون بوجوه مرفوعة لأعلى كأن أجسادهم تقع خارج كل اللحظات الخطرة.

حذرته جدته التي أدركت بشكل غامض أن الطفل صار يتطلع إلى البحر أكثر مما يتطلع للشوارع: (البحارة يحملون مرضًا غامضًا ولكنه ليس مثل كل الأمراض.. فهو لا يميت ولكنه مع ذلك لا شفاء منه، فمن يجلس معهم كثيرًا يعيش ما تبقى من عمره حياة تعسة.. ويموت وحيدًا في النهاية بلا زوجة ولا أبناء ولا بيت.. وفي الغالب يحيا أيامه الأخيرة بالقرب من البحر..حتى تحين اللحظة التي يجرفه فيها الموج ويبتعد.. ثم تهبط به الدوامات إلى أفواه الأسماك الشرسة).

كانت جدته تتطلع إليه بعيني مومياء مُطفأتين، وتدير رقبتها كل فترة لتواجه الضوء بوجه خريفي يتطلع للاشيء.تختلس نظرات إلى أُمِّه..صارت تشبهها كثيرًا بعد موت أبيه.هناك لعنة في هذا البيت تأتي على الرجَال في ريعانهم. جده أيضًا ذهب ذات يوم وترك امرأةً قوية تواجه الخواء.كانت جدته قد استسلمت للقدر أخيرًا. ناظرةً بحياد للمرأة المتكومة، كأنها لا تنتمي إليها. حتى تحذيرها له كان مشبعًا باستسلام من يثق في عدم جدوى ما يفعل..وفي اليوم الذي منحه فيه بَحَّارٌ تذكاره: منظار مكبر، مشيرًا بإصبع مشوش للمدينة، عاد ليجد جسد جدته مسجى..ولم تكن أمُّه بالبيت. حملت كل ما يخصها ورحلت تاركة له ـ فقط ـ ملابسه وجثةً هامدةً تتطلع إلى الفراغ.

ها هو يضع قدمه في السفينة. ليس متأكدًا بعد، حتى وهو يشم روائح العرق المختلطة المتنافرة الممزوجة بالعفانة البحرية.. يشم أيضًا روائح كحول نفاذة.. يشم كل البقايا الممكنة في عتمة السفينة، ويوجهه أنفه نحو رائحة أليفة، ضاعفها موت ما، ليرى هيكل رجل، رأسه مصوب نحوه كأنه كان ينتظره، دون أن يشك لوهلة أنه الآن يرى أباه.

لأنه لم يعد يندهش

اليـــوم

عندما استيقظ كان البحر قد تسلل إلى غرفته.

وجد نفسه يفتح عينيه من نومه وقد غمره الملح، ولم يُصدّق في البداية أنه يرى تلك السمكات التائهة التي راحت تدور حول نفسها على البلاط وعلى جسده.

لا تطل غرفته على البحر مباشـرةً. يفصلها عنه شارعان. هناك شيء غير عادي إذن. كانت مراكب ورقية أيضًا قد احتلت غرفته، خمن أنها لعشاق صغار، وبمجرد أن أفاق أدرك أنه لو مكث بضع دقائق أخرى فسيغرق على سـريره.

كان يبدو الآن شيخًا متوحدًا مندهشًا بعض الشيء، لكن بعينين ميتتين لرجل لم يعد يملك إلا الذكريات. بالأمس تجول كثيرًا في المدينة، حاملاً الكاميرا الفوتوغرافية العتيقة. التقط صورًا كثيرة، وبتحميضها وجد نفسه يواجه مدينةً أخرى، بالأبيض والأسود. ولأنه لم يعد يندهش، فقد خمَّن أنه صوَّر ما أراده وليس ما رآه.. وصدَّق ذلك باستسلام، كأن عدسة الكاميرا المصمتة لم تكن سوى عينيه.

أمـــس

فجأة تغير هواء المدينة. الأبراج الشاهقة في الأحياء الراقية ومكعبات البيوت الفقيرة المتلاصقة في المناطق الفقيرة، كلها اختفت وعاد الخلاء كما كان قبل ستين عامًا. بقيت فقط البنايات القديمة محتفظة بواجهاتها التي أخفى البحر ألوانها تاركًا ملحه ينام بين ثناياها.عادت النوافير التي اندثرت إلى الميادين، وبدأت الأشجار تبرز على جانبي الشوارع مخترقةً طبقة الأسفلت الهشة. كان المشهدُ مثيرًا.. حركات دائبة تبدأ بعدها الفروع في الظهور قبل أن تبزغ تدريجيًّا السيقان وتنتصب. بدأ القار يتجعد لتتعرى الشوارع من دكنته وتعود مبلطةً كما كانت ذات يوم بعيد.. ثم راحت تضيق من جديد. اختفت لافتات النيون وسقطت أفيشات الأفلام الحديثة لتحل محلها أخرى بوجوه خاصمها الضوء الآن. حتى الناس لم يجدوا الوقت ليندهشوا أو يرتعبوا مما يحدث، فبمجرد نزولهم للشوارع تغيرت ملابسهم. بناطيل الإناث الضيقة صارت تنورات واسعة، وشعورهن القصيرة المصبوغة استطالت لتنسدل متموجةً على أكتافهن.. واكتمل كل شيء حين اختفت الألوان فجأةً واكتست المدينةُ كلها بالأبيض والأسود.

«لم أندهش، وأنا ألهث بالكاميرا خلف كل ذلك؛ لأنني صرت أرى المدينة التي أعرفها.. أنا المُصوّر الفوتوغرافي العجوز الذي لم يعد يجد ما يفعله.. وفي ركن بعيد، على دكةٍ خشبية قبالَة الكورنيش، تظللها شجرة كافور ضخمة.. وجدت حبيبتي جالسة».

مدينة الأشباح الغارقة

لم يكن مطرًا، ذلك الذي أغرق الشوارع حتى أخفى ملامحها، ومنحها مذاق شتاءٍ منسي. كانت الأسماك وكافة المخلوقات البحرية تسبح في طرقات المدينة التي صار أسفلتها الآن مجرد قاع للبحر الجديد.. وراحت الهياكل العظمية للقراصنة والغرقى القدامى تتمشى بقاماتها الأطول من أعمدة الإنارة.. بينما أخذت الأمواج العنيفة تصطدم بالعتبات وواجهات البيوت في هدير مرعب تاركةً الزبد الأبيض يتسلق الش-رفات لينام داخل البيوت. هكذا استيقظ ساكنو الأدوار العليا في غرف يصل الماء فيها لأعناقهم.. أما ساكنو الأدوار الأقرب للأرض فلم يستيقظوا أبدًا؛ لأن الصباح عندما جاء كانوا قد تحولوا في أس-رّتهم إلى غرقى بأجساد زرقاء وأحلام متحللة بفعل الملح.

حدث ذلك في الليل، بينما كان أغلب السكان قد ذهبوا في نوم عميق لم يعرفوه من قبل، ولم يمنح الماء الفرصة لمن شهدوا بداية الواقعة في الشوارع كي يحذروا الباقين؛ لأنهم غرقوا في أماكنهم بأفواه مفتوحة من الذهول. الغريب أن أحدًا من النائمين لم يستيقظ أثناء نومه لأي سبب. نام الجميع في سكينة تشبه الموت، وكانت الأحلام بلا كابوس واحد.

عندما خرج سكان الأدوار العليا إلى ش-رفاتهم ليقفزوا، تفاديًا للغرق في البيوت، اكتشفوا أن البحر قد انتقل بأكمله للشوارع.. وعرفوا أنه لم تعد هناك فرصة واحدة للنجاة. وعندما جازف البعض - ممن يجيدون السباحة - بالقفز، طمعًا في النجاة باتجاه البحر الذي جف الآن وصار اليابسة الوحيدة المتاحة.. التهمتهم الهياكل العظمية س-ريعًا. كانت السفن الضخمة التي غرقت ذات يوم تجثم فوق الماء بأعداد لا نهائية. وعلى مرمى البصر، كان قاع البحر الذى خلا تمامًا قد تحول إلى صحراء شاسعة من تراب ناعم داكن الخضرة، راحت الشمس تجففه من بقايا الماء العالق به.

صارت الدهشة في عيون السكان أقوى من الفزع، وقد اكتشفوا أن مدينتهم تحولت في لحظة إلى ذكرى. وباءت كل محاولات الإنقاذ بالفشل؛ حيث غرقت كافة القوات التي أتت لإنقاذ المدينة. وكان مشهد الكلاب والقطط التي طفت فوق الماء هو الطقس الأغرب في كل ما حدث.. فلم يتوقف النباح ولا المواء رغم تحلل أجساد الحيوانات النافقة.. بل كانت أصواتها أكثر حدة وملأ صداها الجنبات ليضاعف من الرعب.

المكان الوحيد الذي لم يهاجمه الماء، كان ساحة المقابر القديمة، والتي تم التخلص منها صباح الأمس فقط ليتحول مكانها إلى خلاء تصفر فيه الريح.كانت السلطات قد قررت نقلها من مكانها إلى ضاحية جديدة بعيدة عن البحر، وبعثت ببرقيات إلى الأهالي تخطرهم فيها بالذهاب لتسلُّم رفات ذويهم.

كان المشهد مهيبًا، نُزعت الصبارات أولًا، وتم اقتياد المُقرئين المكفوفين بعيدًا عن الشواهد.. ورغم ذلك ظلّت أصداء التلاوات تتردد في سماء الموتى قادمةً من حناجر مجهولة.

بمجرد أن فُتحت المقابر تشابكت الأيدي: عثر الأهالي فيها على عملات ذهبية، وحلي، وملابس لم تتلف، وأقنعة من العاج والرخام لوجوه طيور وحيوانات.. البعض نزعوا

أسنانًا ذهبيةً من الأفواه العظمية، وآخرون التقطوا كتبًا كانت لا تزال مفتوحة بين الأيدي الفانية المتشبثة بها. وفي اللحظة المتفق عليها لبدء العمل.. وبينما بدأت الجرافات تتحرك بهديرها المخيف، اكتشف الجميع أنهم عبأوا الأجولة التي صحبوها معهم بكل شيء، فيما عدا عظام موتاهم.. وبالكاد فروا بسرعة من أمام مقدمات الجرافات الضخمة التي دكت المقابر لتسويها بالأرض. وعندما انتهى العمل، قرب الغروب، استقبل البحر كل ركام اليوم المُترب.. دون أن يتخيل شخصٌ واحد أن الموتى سيعودون سريعًا لتصير المدينة بأكملها حلمًا غارقًا في عالمهم الآخر.

قبل مجيئنا إلى الدنيا

نحن البحارة.. أس-رى تلك السفينة الآن وأيادينا مغلولة بالسلاسل خلف ظهورنا.. والسيقان متقاطعة.. وعلى مقود السفينة – يا للهلع ـ الكفان المشعرتان السوداوان بباطني الكفين الورديين، تنتهيان بالأنامل الطويلة المخيفة لقرد أعمى. القردُ هائج يمخر العباب مخبولاً بما يحدث، وكل حين يترك المقود ليصفق بكفيِّه الضخمتين المقوستين. أسنانه الصفراء العريضة تخرج من ب-ينها ضحكاته الشيطانية.. «ألسنا من أجلسناه معنا يملأ خياشيمه السوداء بأجود دخاننا، وخصصنا له كوبًا يصب فيه من ش-رابنا المعتق؟! ثم إنه صار يشاركنا طعامنا، مقابل مجون اللهو الذي يصنعه غرور من هم على شاكل-تنا لمن هم على شاكلته! الدف يشتعل والقرد الأعمى يرق-ص.. يركب الهواء بذيله المتطاول المشعر الأسود كعين الموت الذي ينتهي بما يشبه رأس السهم – كيف لم نن-تبه قبل ذلك! ـ يلتقط السمكةَ من عمق الماء قبل أن يطوحها في الهواء لتسقط بين أقدامنا، تدمى من غور الجرح الذي صنعته فيها مديته القاتلة»!

قالوا لنا: ستلمحون قردًا يتقافز بين الشواطئ ملوحًا كأنه تائه.. لا تعيروه ال-تفاتًا.. ولا تغويكم الرغبة في ال-تسلية عندما يبدأ بالرقص وأنتم مدهوشون.. ولكننا وقعنا في الإغواء حين رأيناه؛ لأنه بدا لنا ليس كبحارٍ تائه، بل كامرأة لعوب.

قالوا إنه يعيش منذ أزمانٍ سحيقة.. قبل مجيئنا إلى الدنيا بسنين لا تحصى.. يتقافز هائمًا بين الشواطئ وملوحاً طوال الوقت.. الكثيرون كانوا يعودون متباهين بعد أن قتلوه.. بل إن بعضهم، إمعانًا في التأكيد، كانوا يعودون برأسه.. غير أنه ظل دائمًا هناك، كأنما يتوالد من نفسه.. يأس-ر البحارة.. ثم يتغذى على عيونهم، وعندما يتأكد أن الظلام قد صار قدرهم النهائي، يقذفهم واحدًا واحدًا في البحر ويمضي بالسفينة حتى أقرب شاطئ.. يهجرها.. بحثًا عن ضحايا جدد..

والتفت.. ضحك القردُ الآن ضحكة الشيطان العصي.. ونظر إلينا نحن الفانين من ظلمة حدقتيه الأبديتين اللانهائيتين.. بينما ذيله يتطاول حتى يلتقط طيور السماء ويسقط بها بين أقدامنا.. وبهدوء، ترك مقود السفينة.. وبدأ يمد أصابعه نحو وجوهنا – واحدًا تلو الآخر ـ ليُش-رق في ظلمتنا.

عينا رجل أعمى

إلى بورخي-س

حدثتني كثيرًا عن كاتب أعمى، كان يُعنى بالمتاهات ويبتسم لأشد الكواب-ي-س شراسة.. بينما تمشي متكئًا على ذراعي كأن-ن-ي سأص-دق كلامك عن الأشياء التي يزداد أفولها أمام عينيك يومًا بعد يوم. هل تذكر حين رأيناه معًا بعد ذلك يتجول على واجهات المحال مندهشًا؟ أكدتَ لي أنه ذلك الأعمى، وكم كنتَ ذلك الريفي حين نهرك بشدة، بينما تكاد تنحني على يده لت-ق-بّ-لها بعدما انتزع جسدك انتزاعًا ليبعدك مترين عن السيارة التي كادت تودي بحياتك!

لا تقل إنهم حفنة من الق-ت-لة باغتوك من الخلف. كل هذا لن يحقق لك نجوميةً ما، ولن يجعلك تكتب قصةً جيدة. يكفيك خجلاً أن رجلًا بدائرتين غائرتين مكان عينيه شاهد السيارة القاتلة قبلك.. وأنقذك من ميتة مبصرة. يومها سكنَت بطاقته جيب سترتك بأمان وهو يطلب منك بأبوة أن تزوره ليُطلعك على مخطوط كتاب جديد لم يَطَّلع عليه أحدٌ بعد. ويشير بأصابعه لتلك البناية الشهباء المعجزة في صنعها، وتَدوير واجهتها، وقبتها السخية الزاخرة بالنقوش، بب-ياضها المدخن المُدوّخ المواجه للسماء والتمثال الصغير لطفل عارٍ في قمتها. أشار لها بإصبع محترف فرأيتها بكل غموضها، في نهاية الناصية.. وهو يُخبرك أن تصعد الطابق الثاني وتدخل دون استئذان ـ حيث تعوَّد أن يترك الباب مفتوحًا حتى عند نومه أو نزوله للتجول بوسط المدينة ـ وتتحرك في البيت بحرية كأنه مكانك الخاص، وحذَّرك أنك ستجد كل الأنوار مغلقة والنوافذ المستطيلة المتطاولة مفتوحة دون أن ينجح خيطُ ضوء واحد من الخارج في التسلل من بين الأعمدة الحديدية الملتوية، حتى في ذروة النهار.. وقال لك: لا تحاول تحسس الجدران من حولك بكفٍّ فضولية لأنه لا توجد مفاتيح إضاءة. رغم ذلك مضى في حديث فَرِح عن الثريات الضخمة التي تزخر بها أسقف كل الغرف شديدة العلو والنأي والتي يعود زمن صنعها لزمن البناية ذاتها، والشمعدانات المنحوتة على شكل تماثيل مفرغة بانحناءاتها وانثناءاتها وبروزاتها وأغوارها وقد صار الحجرُ مع الخشب مع المعدن طيعين وناطقين بالحياة وبالجَمال الذي تغدو حياله وظائفها البسيطة امتهانًا لا يُحد.

قد يكون ـ عند دخولك الحريص المتعثر ـ نائمًا أو في جولة بالمدينة فلا يتمكن من إل-ق-اء القصة على مسامعك بصوت عالٍ يستخدمه العميان عادةً لكيلا تخونهم الذاكرة. سيكون عليك حينها أن تلتقط المخطَّوط، فلا يوجد سواه بالشقة، حيث قطع الرجل الأميال وأتى خصيصًا لإتمامه هنا، في المدينة التي يتذكرها بشكل خاص منذ طفولته ويحتفظ لنفسه منها بصورةٍ مهترئة وهو يمتطي جملًا هائلاً مرتديًا الأسمال العربية تحت سفح الهرم. لن تبذل جهدًا في التقاط المخطوط من أقرب ركن بالمنزل، فالكتب المكتظة بالمكتبة ليست إلا نسخًا لا نهائية منه، وتلك الموزعة بإهمال على كل الجوانب هي أيضًا نسخ منه، لأنه، كما أخبرك، يحب أن يمد كفه الناحلة في أي لحظة وباتجاه أي مكان ليجده في يده. ستبدأ عاجزًا في محاولة القراءة، وسيمر وقتٌ طويل قبل أن تجد السطور تضيء أمام عينيك والصفحات تدار بِنَهِم.

ست-ت-كرر زيارات-ُك، وفي كل مرة ست-تعثر من جديد في قطع الأثاث التي خِلتَ

أنك صرت تستطيع التحرك بينها بخفة في العتمة، وأنت تكتشف كيف غيَّر ـ بعد آخر زيارة ـ مواضعها، وكيف بدَّل من وظائف الغرف لتجد نفسك تتبول في غرفة نومه، أو تتأمل المدينة من نافذة المرحاض، وسيكون عليك في كل مرة أن تقذف خلف ظهرك ما ألفته وتبدأ التعرف على الشقة، والساكن، والزائر الاستثنائي من جديد.. بينما تحس في كل مرةٍ تغادر فيها البناية بالأشياء وقد ازداد اهتزازها وانسحابها أمام عينيك عن اليوم السابق، وخفتت إضاءتها، لتصدق أن توجساتك التي كنت تعلنها كرتوش ضرورية للكاتب بدأت تتحول لواقعٍ مُعلن.. بينما تنفض ذراعك بعنف عن ذراعي رافضًا أن أوجّه خطواتك وتصر أن تتحركَ وحدك بذراعين مشهرتين للأمام تفتشان في الهواء القريب.

مثل جميع الطاعنين في السن من ذوي القامات الضئيلة والأشباح الشاذة، سيكون عليه أن يستعين بك في طقوس جنونه، لنقوم بدور المتفرجين بينما يرقص في هيستريا مع الدراويش بقلنسوة طويلة على الرأس وأسمالٍ واسعة كفساتين النساء وفي يده ذلك الدُّف الضخم. تخرج النيران من عينيه الميـتـتـين وتتراقص الفراشاتُ منطلقةً من بين شفتيه الرفيعتين الحادتين المغلقتين اللتين تعلوهما خطوط العمر. يجلس خاشعًا في المعبد البوذي ويتحرك منبهرًا غير مصدق ببيت «كفافيس». يبكي في الأديرة الصحراوية ويغمر النور وجهه في مساجد الأولياء، ثم يبقينا بينما يقرفص في دائرة محدقًا إلى النار كأنما يستجدي رجوع نور عينيه أو يرثي زواله.. ويجعلنا محط أنظار محلولي الشَّعر من الوثنيين بينما يمرر أنفه في ثنيات الحجر. يهزم لاعبي الثلاث ورقات تباعًا حتى ينتهي وقد كوَّم ملابسهم الرثة على أذرعنا وتركهم لعريهم وخسارتهم. تـُلتـَقـَط له صورة حديثة على جمل عجوز تحت سفح الهرم.. بينما علينا أن نصدق أنه نفس الحيوان القديم وأن صاحبه الأسود العجوز ذا الفم الخالي من الأسنان هو ذات الطفل الذي ظهر جانب وجهه الذي دسه بفضول قبل ضغط الزر بلحظة ليضمن لنفسه مكانًا في الصورة القديمة المنسية. كل هذا الجنون كان علينا أن نعيشه بابتسامات مغتصبة بينما يتناول قهوته في مقهى ضيق منزوٍ ونرجيلته في مكانٍ ضخمٍ مستوحَش يشبه واحدًا من قصور الحكايات.. وفي نهاية كلِّ مرة كان يؤكد عليك ألا تنقطع عن الزيارة، بينما تؤكد له في خجل المعتذر أنك أوشكت على الانتهاء من المخطوط، دون أن تخبره بمتاعب عينيك المتزايدة التي تجعلك في كل مرة تقرأ صفحات أقل من سابقتها.. ولا ينسى أن يمنحني ابتسامة رسمية لا تخلو من شغف بينما يسألني عن الكتابة فأؤكد له أن ليس لي بها علاقة من قريبٍ أو بعيد.

بهرك المخطوط، وحدثتني ألف ألف مرة عنه حتى مللت وحتى بدأت أحس بنورٍ عيني ينسحب مني مع كل إشارة منك له، ثم فوجئت بأنك تحفظه عن ظهر قلب مندهشًا كيف تمكنتَ من استظهار كل تلك الصفحات التي لم يُسمح لك بقراءتها سوى مرةٍ واحدة في ظل عتمةٍ محكمة وتشوشٍ غير محتمل؟

ما زلت أعجز عن تخيل مشهده وهو جالس إلى مكتبه وأنت في الكرسي المقابل يسألك، بهدوء الأب وثقته، عن رأيك في المخطوط.. فتقرأه كاملاً من الذاكرة بصوتٍ عالٍ قبل أن تعلن انبهارًا صادقًا تداخلت فيه الكلمات وتشوشت وتلعثمت، ليفتر ثغره عن ابتسامة مطمئنة مرعبة، وهو يلتقط نسخة من المخطوط بدت كأنها قفزت باتجاه كفه بمجرد أن مدّ يده ـ واحدة من أكداس المخطوطات الموزعة في كل مكان من حوله، حتى في الهواء كان بعضها يسبح ـ وضغط بإصبعه على زرٍّ سـري ليغمر الضوءُ الغرفة

والشقة كلها لأول مرة. توهجت الثريات واندلع اللهب من فوهات الشمعدانات واخترق ضوء النهار الشقوق بين القضبان الحديدية ليتجول حرًّا داخل المكان. مهرجانٌ مبهر من الأضواء يعشي الأبصار لم تر مثله من قبل، حتى أنك أغمضت عينيك الكليلتين فجأة، وظللت على هذا لفترةٍ طويلة، وحتى عندما بدأتَ تألف المفاجأة وتتعود الضوء.. ظلت عيناك نصف مغمضتين كأنك تحدق في ملايين الشموس... ثم بدأ يدير الصفحات في يديه بهدوء، قبل أن يمد لك ذراعه بالمخطوط لـتـتأمله لأول مرة في الضوء ، وتتجول عبثًا بين آلاف الصفحات البيضاء وتعود للغلاف المقوى الأبيض وقد صرت على شفا الجنون.. وأنت تلتقط نسخةً تلو نسخة دون أن تعثر على شيء سوى آلاف أخرى من الصفحات البيضاء، بينما ضحكته الوحشية تتصاعد تتكاثر تلفك، لتكتشف ـ لأول مرة ـ عمق الكهفين الغائرين الممتدين في وجهه وحياتهما الخاصة إذ يضيقان يتسعان يقصران فجأة يتطاولان للداخل.

ما زلت عبثًا أحاول تخيل تلك اللحظة، بينما أشدد من قبضتي على ذراعك وأنت تتعثر كطـفـل حرون محاولاً الإفلات مني ونحن نعبر أمام البناية المسوَّرة ذات اليافطة المكتظة ببياناتها كأثـر تاريخي محظور على الرواد قبل عام آخر على الأقل من أعمال الترميم، والتي ذهبتَ إليها مرارًا باعتبارها المكان الذي يحيا فيه. ما زلت أحاول إقناع نفسي أن هذه العتمة بامتداد ناظري ليست سوى مأزق مؤقت وهي تتسع وتستوحش دون أن أملك حيالها شيئًا، في حين أجاهد لإخفاء السؤال الشـرس بينما أتأكد أن جسدك لا يزال تحت سطوة قبضتي: لماذا ظللتَ طوال ساعةٍ كاملة تغرز أصابعك في عينيَّ بالغًا أقصى أعماقهما؟ ولماذا لم أتألم أنا للحظة وأنا أحس بملامحك تغادر، ببطء، حيزَ مشاهدتي؟

رغم الظلمة.. رغم النوم

لا نذكر أي شيء عن اللحظة التي داهموا فيها منازلنا، وانتزعونا من فوق أس-رتنا بينما كنا نغوص في منامات عميقة، أشبه بموتى لا تربطهم بالحياة سوى أنفاس مضطربة.. لنجد أنفسنا في ذلك المكان الفسيح المظلم، مقيدين في مقاعدنا، فيما يشبه قاعة عرض مهجورة، قبالة شاشة ضخمة مضاءة.

كنا قد بدأنا بالكاد نشعر بالألم، الآن، في مناطق مختلفة بامتداد أجسادنا، استشعرناها تدريجيًّا تتعالى، دون أن نتمكن من تحسسها. كانت هذه هي اللحظة التي عرفنا فيها أن أيادينا مقيدة إلى الكراسي، وكذلك أرجلنا. ألسنتنا فقط كانت تتحرك، مستشعرة لزوجة الدماء التي تسيل من أنوفنا وأفواهنا.

نعم.. كنا وقتها نسبح في أحلام أكيدة، ولا بد أنهم حين اقتحموا غرفنا لينتزعونا من الأس-رة لم يواجهوا مقاومة تذكر.

كانت وجوههم - التي تعرفنا عليها رغم الظلمة، رغم النوم - مألوفة لكل شخص في المدينة، وخطاهم المنتظمة التي تدك الأرض تكفي لكي يفتح الجميع الأبواب قبل أن يطرقوها.

كل ما نذكره عن أنفسنا أننا أفراد فرقة موسيقية، تعزف في مسارح مرتجلة بامتداد المدينة. نستخدم آلات نحاسية وكهربائية، ولا مكان لدينا للموسيقى الش-رقية. إنه شجن مفتعل، شخص ينكفئ على عود، آخر ينتصب رافعًا نايه لأعلى. ليست لدينا ذكريات بعد. نحن صاخبون. الرجال عندنا يشبهون الفتيات، ربما تمامًا.. كذلك من يحضرون إلينا من أقاصي المدينة، يصعب أن تفرق بينهم. إحدى أشهر أغنياتنا نؤديها ونحن نم-ارس الجنس، من أصوات التأوهات، والشهقات، واللهاث.. من أصوات اللعق المنهمكة الخفيضة، وتقلبات الأجساد على خشب المس-رح المؤلم، تخرج الأغنية. ربما نهدد الأمن العام، لكن ليس بسبب إباحيتنا، في هذه المدينة لا تمثل هذه الأشياء تهديداً. هناك أشخاص يُقتَلون، يحدث ذلك كلما دندنوا بأغنية لنا. كل من يغني أغانينا خارج قاعاتنا المغلقة يُقتل بطعنة في حنجرته.

كان لا بد أن يقتادونا، في المنامات تحديدًا، لأن ذلك كان يحدث دائمًا ونحن نائمون.

في لحظة ما، ازداد الألم، كأننا كنا نتخلص تدريجيا من مخدر، فبدأنا في الصراخ.. وفي هذه اللحظة فقط بدأت ظلالنا، ظلالنا العارية، تتحرك على الشاشة الضخمة البيضاء، بينما تتوالى أحلامنا أمامنا على الشاشة.. بالمشاهد الدموية التي شهدتها، والتي لم يتخيل أحدنا أن شخصًا سواه قادر على رؤيتها، بنفس دقة الرؤيا التي يعجز أي منا عن س-ردها. بل إن بعض تلك الأحلام كنا قد نسيناه أو كدنا.. حتى أدق التفاصيل كانت حاضرة: أصوات الأعيرة النارية الممزوجة بالعزف، وألوان الدماء، ووجوه القتلى. كنا قتلة المنامات الذين اقتادوهم الآن رغم أن نقطة دماء واحدة لم تكن عالقة بملابسنا وهم يحملوننا لنكمل نومنا هنا. و فوجئنا بهم يخبروننا أن علينا أن نذكر الدوافع.. غير مصدقين أن قتلانا شُيِّعوا بالفعل إلى المقابر في الصباح، بينما كنا نغط في نوم عميق أبطاله ضحايا جدد، أَخبرونا أنهم في حالة خطرة بدورهم.

لم نصدق.. كُنَّ حبيبات، وآباء وأصدقاء وأبناء. أخبرونا الآن فقط أنهم وجدوا مطعونين أمام عتبات منازلنا. قالوا إن الجرائم نسخ طبق الأصل من أحلامنا بها، وأنه لا داعي للإنكار، ولم يكن بمقدورنا الآن أن ننظر لأنفسنا كمحض حالمين.. واستطعنا أن نصدق أن الدماء التي تغرقنا ـ الآن فقط، في هذه اللحظة، كوردات تنبت من العدم ـ تخص ضحايانا.

أعتمت الشاشة.. وأخبرونا أنهم بدورهم يحلمون بنا الآن، بعيدًا، في أس-رتهم، في لياليهم المتوحدة، يتوجهون بنا إلى غرف الإعدام.. يتركوننا للحظة الموت، وأنهم حين يستيقظون في الصباح التالي ستكون مهمتهم قد انتهت.

ملاك أسود

يسقط، مع الظلمة، في الليل. قطعة شاحبة من جمال مظلم، معتم. يسقط كأنه الليل نفسه. ويتقافز بين الأسطح، بدكنته التي لايمكن أن يكتشفها أحد. يتقافز بخلوده، خلوده الأسود، الحالك الذي لم يتمنه. وكعادته يتلصص على حفنة الفانين، الفقراء، أصدقاء التراب. عليه يمشون وتحته يدفنون. ليس ملك موت، ولي-س شيطانًا، فالشيطان شاهق البي-اض. هو ملاك داكن، معتم حتى أن القمر نفسه لا يكشفه. وهذه بلدته التي اختارها ليتفرج على عذابات يومية، كثيرًا ما تمناها. الحياة المؤقتة التي لا تفنى، لأنها الحياة التي تبقيها الذكرى. الحياة التي يتركك فيها إلهك للخطأ.التي تتمنى فيها يوما جديدًا يمدك بالحياة، ويخصم منها.الحياة التي يتنفس فيها الجميع لكي يموتوا دون خوف في النهاية. النهاية! تلك التي لا يعرفها. منذ آلاف السنوات وهو هنا، وبعد عدد آخر لا يحصى سيظل. إنه يعرف الجميع واحدًا واحدًا، أقدم من كل سجلات المواليد، لكنَّ أحدًا لا يعرفه. يتمنى أن تكون له ذكرى، لا يتمنى غير ذلك، ولا ينال سوى الحاض-ر.

غرفة يهوذا

بوغتنا ـ ولا نزال ذاهلين وقد اقـتُلِعنـا عن كل ما يخص العالمَ الخارجي ـ بأغرب مقبرةٍ للطيور، ونحن نتعثر، نبحث لأقدامنا عن أي مساحةٍ خالية في هذا المهرجان الصامت لملايين الجثث والتي بدت لنا مستعدةً، في أي لحظة، للتحليق فجأة في هذا الطقس المنسي الذي بدا بلا معنى، كما بدا شاذًّا في جماله المدوّخ.

لقد بدا المكانُ أكبر بكثيرٍ من محض غرفةٍ تخص ساكنًا يستعصي على المحو. كانت النافذةُ بلا أسيجة ولا شبابيك. تبدو عبرها السماءُ محض درجةٍ من اللون الأزرق الذي دهنت به كل الجدران، والأرضية، والسقف، مما فسـر لنا جزءًا كبيرًا من إحساس الأمان الغامض لكل تلك الجثث الملونة، المتنافرة، والتي تنتمي لأماكن متباعدة ولأزمنةٍ بعينها حتى إن بعضها لم نكن نعرف له شبيهًا في العالم، وكان تلاحمها المدهش في مكانٍ واحد يشي بخطرٍ مجهول لا نعرف كنهه. لم يكن التلفُ قد نال من أي قطعةٍ في أجسادها؛ كأنها نفقت منذ دقائق، أو بالأحرى كأنها ـ وقد منحها ضوءُ الصباح الخفيف مسحةَ حياةٍ ضئيلة ـ نائمة في سماءٍ مسقوفة هروبًا من المطر أو استعدادًا لرحلة الهجرة القادمة.

كان علينا ـ ونحن نُخرج الأقلام ونفتح كراسات الملاحظات ـ أن نتخيلَ اللحظات الأخيرة التي قضاها مع نفسه قبل أن ينزل الدرج بهدوء بعد نومٍ رديء وأفكارٍ مشوشة ليغير صفحة العالم: أحزانه التافهة والتي لن يعرفها أحدٌ أبدًا ولكن تبدو ضرورية في ظل مجده الأسود الذي رأيناه الآن ـ في قلب ذلك الحلم الغائم المعلق ـ لا شيء.

تخيلنا أشدَّ اللحظات إثارة، حين يستيقظ ليرى السماءَ وهي تخلو تدريجيًّا باتجاه مكمنه، ليشاهد فوق رأسه تمامًا، في ذلك المكعب الضيق الذي لا يكفي لتحليق ذبابة، أسـرابَ الطيور المتباينة المختنقة وقطع السحاب القليلةِ الثقيلةِ الداكنة المنذرة بتحويل الغرفة في لحظة إلى صندوقٍ مملوءٍ بالمياه، لـتحقق الميتة التي يعجز أمام تصورها أشدُّ أحلامه جنونًا.

كان هناك مع ذلك، يتلقى الفضلات الدقيقة ونقاط الماء القليلة التي أبت إلا أن تظل حجرته أكثر غرابةً من خياله.

رغم ذلك رأينا أعقاب السجائر مختلفة الأنواع، وروائح الفتيات والزوجات الحديثات ونساء اللذة الطاعنات للسكان الذين تعاقبوا على الغرفة دون أن يعرفوا أبدًا من كان ساكنها الأصلي. إنهم العابرون القليلون لغرفةٍ بلا مستأجر.. والذين عاشوا مهددين دون أن يعرفوا لماذا، حتى لو تخيلوا أشد الإجابات جنونًا، والتي كانت ستذوب بمجرد سماع الاسم.. تحت غطاء أحلامٍ مزعجة وأعدادٍ متزايدةٍ من الموتى المجنحين في وطأةِ هواءٍ أزرق وسحرٍ غير محتمل.

طيور بحدقات محترقة

عندما بلغت الثالثة عشـرة، قررت أن تهب نفسها للدير. توجهت إلى أمها، لم تغيّر المرأة الطاعنة من جلستها، أو تتحرك تجعيدة واحدة في وجهها. فقط قالت لها: «إنك لَم تخفقي بعد في قصة حب.. فلماذا تفعلين ذلك؟».

لم تكن تعرف. فقط كان يجذبها مجهولٌ بعيد تعرف أنه يكمن بين الحوائط هناك: الأصوات الصحراوية التي يرددها الصدى كأنها ملايين الأحلام البعيدة، الطيور التي تتخبط أعلى القباب محدقةً في عين الشمس. طيور عمياء كما يؤكد أهالي البلدة.. حدقاتها محترقة.. ريشها كلها أسود، لا تكف عن التحديق في القرص الملتهب ، وتموت في أماكنها ثم تسقط متحولةً إلى رماد حالك.. وتأتي أجيالٌ جديدة منها، تعيد الكرَّة. كل ذلك كان يجذبها. تَرى الرجال والنساءً بالأردية الداكنة، بشـراتهم مُلوَّحة: هل ترقد شمسٌ أُخرى بالداخل؟ يسيرون متمهلين، ناظرين للأرض.

في المساء كانت ترى الأضواء الخافتة، تتحرك النجوم بطيئةً ومتوحدة.. وتقترب السماء حتى أنها تُغلق نافذتها بوجل.

هكذا جزَّت ضفيرتيها المتطاولتين. حفرت في مكان قريب وأسكنتهما ثم أهالت فوقهما الرمال. توجهت إلى الداخل بشعر قصير حتى إنهم ظنوها غُلامًا. كانت تعرف أنها لن تغادر هذا المكان إلا جثة.. وكانت تعرف أن ماضيها لم يعد يتبقى منه سوى ضفيرتين ستذويان تحت الرمال.

كل حين، لدى خروجها، كانت تنبش الأرض، تُخرج الضفيرتين، تجدهما لم يتعرضا لأذى، فتندهش.تُملس بكفيها على الخصلات البيضاء التي بدأت تغزو شَعرها متأملةً ضفيرتيها اللتين يزداد في كل مرة سوادهما الفاحم.

ظلت تفعل هذا، حتى بعد أن صار شعرها بأكمله غطاءً أبيض يعلو وجهها. وصارت يومًا بعد آخر تستشعر تجاعيد وجهها بأناملها، كأنها تتحسس قناعًا يخص شخصًا آخر.. أما جسدها، فلم تنظر إليه أبدًا منذ أغلقت الباب الثقيل خلفها وصارت أسيرة الحوائط.

أعوامٌ طويلةٌ مرَّت، قامت مدنٌ واختفت أُخرى، وصارت هي قديسة.

ذات مرة أزاحت الرمال فلم تجد الضفيرتين. نبشت بكفيها بجنون، فلم تجد سوى كائنات دقيقة وبقايا طيور سوداء محترقة وعظام تحولت في لمحة إلى مسحوق شاهق البياض.. فوسَّعَت الحفرة وتركت جسدها يستريح تحت التراب.

عتمة كاتم الأس-رار

عندما جاء، كانت في انتظاره. فتحت له البوابة الحديدية الضخمة، وبكت بين ذراعيه طويلاً.. ثم دعته إلى الداخل.

عبرا الحديقة الواسعة معًا، وعبرا معها ـ مرةً أخرى ـ أزمنة طويلة.. عائدين للحظة التي كانا فيها لا يزالان عاشقين. تردد طويلاً عندما طلبت منه المجيء؛ لأنه يسكن في المقابر بينما تقطن هي قلب الحياة. كانت تزوره كثيرًا. تخرج من بيتها في الليالي المظلمة التي بلا أقمار، متشحةً برداء أسود، وغطاء رأس لم يكن يُظهِر سوى عينيها اللتين لا تزالان جميلتين. ولأنه كان يرفض رؤيتها.. تعودت أن تتحدث بصوت عالٍ، حتى تكاد تص-رخ في صمت المقابر المرعب كي يصله صوتها ـ الذي يضاعفه الصدى ـ أينما كان.

لم تكن المرأة تعرف أن الريح تحمل صوتها العالي ليس إليه فحسب، بل إلى كل بيوت المدينة.. وأن الجميع صاروا يعرفون آلامها التي لا تبوح بها إلا بين شواهد الموتى.

في آخر زياراتها له لم تتحدث. اكتفت بتسليم خطاب قصيرٍ وحاسم لحارس المقابر كي يوصله إليه، كتبت فيه عبارةً واحدة: لا بد أن تأتي إليَّ قبلَ أن أموت.

كان يعرف عنوان بيتها الذي صرخت به كثيرًا في ليالي توحده اللانهائية. بعد أيامٍ من التخبط اتخذ قراره بالذهاب. طلبت منه أن يقضي معها الأيام المتبقية من حياتها. رفض، غير أنها أصرت. منحته الغرفة الخالية التي كانت مخصصةً فيما مضى لتربية الطيور، وقالت له: «إنها لا تختلف كثيرًا بالتأكيد عن المكان الذي تعيش فيه». ولكي تُطمئنه تمامًا أكملت: «في هذه الغرفة لن تستقبل خيط ضوءٍ واحد. لن يزعجك أحد. لن يتلصص عليك شخص».

استطاع أن يرى زوجها الهرم، وابنها الشاب غريب الأطوار. رأى أيضًا ابنتها الجميلة، والتي لم تكن سوى نسخةٍ منها في شبابها. «كان يمكن أن تكون تلك الفتاةُ ابنتي».. هكذا حدَّث نفسه، كابحًا خيط دموعٍ وهميًّا كاد يغادر عينيه اللتين بلا ضوء.

بدأ يراقب الأُس-رة. كان يتحرك بين الجدران التي شاخت والظلال الشبحية دون أن يلاحظه أحد. أحيانًا يهذب أشجار الحديقة.. أحيانًا يترك وردةً تحت وسادة الفتاة المعذبة كي تعيد لها الأمل في أن حبيبها الذي تركها ربما يكون قذف بها إلى ش-رفتها. حتى الزوج.. منحه أموالاً وجدها ملقاةً في أحد أركان غرفته المعتمة. كان يعرف أنه يحب المال. كان يراه وهو يتشمم الأوراق النقدية، فترك له ما وجده من مال في جيب صديريته، ورآه ـ في لحظة سعادةٍ نادرة ـ يشكر السماء التي أتت إليه بمال ليس في حاجةٍ له. وحدها ربة البيت ظلت وحيدةً.. فلم يكن قادرًا على خداعها لأنها كانت تعرف اللعبة.. كانت سعادتُها الوحيدة أن يظل موجودًا.. ألا تستيقظ ذات صباح لتُفاجأ بأنه ترك غرفته وعَبَر الحديقة بخطواتٍ واسعةٍ وأزاح البوابةَ الثقيلة ليتنفس مرةً أخرى هواءَ عزلته.

كان هو كاتم أس-رارها الوحيد، رغم أنها بلا س-ر. تعودت كل مساء أن تهبط إليه في غرفته بعد أن ينام البيت، لتتحدث إليه بصوتٍ هامس. ورغم أنها لم تكن ترى وجهه، ولم يكن يبادلها الحديث، إلا أنها كانت قانعةً تمامًا بتلك المتعة.. وخصصت يومًا في

الأسبوع لتتحدث عن ذكرياتها معه، مستدعيةً سـرابات غرامها المفقود.

في اللحظة التي أصابه فيها السأم تمامًا، كانت المرأةُ قد أفرغت أحشاءها من الذكرى. تعوَّدته حتى صار حضوره الغائب أليفًا.. وبدأت دموعها تتحول معه إلى ضحكات.انشغلت عنه فجأة، مرة بزيجة ابنتها، التي قالت نعم لرجل لا تحبه.. وبسفر ابنها الذي أراد أن يرى العالم بعيدًا عن عيني أبيه.. وبمرض غامضٍ أصاب زوجها فصار يحلم كثيرًا بأنه يرفرف، فيخرج إلى السطح ويسقط كلَّ مرة علَى أعشاب الحديقة دون أن يموت. وبعيدًا عن كل ذلك، انشغلت المرأةُ بموتها الشخصي الذي أحست به يفتح بوابة البيت مُتجهًا نحو غرفة نومها.

ترك المنزل ذات صباح، تاركًا كل الذكريات تسيل بين الجدران، وعاد إلى العتمة الوحيدة التي تعوَّدتها عيناه.. حيث تكمن مقبرته.

الصياد والفريسة

بالسوالف الرومانتيكية المتفق عليها وسيجارة في ركن الفم، يغادر الصياد بيته. دائمًا بنفس المعطف الذي تداخلت فيه المصائرُ الداكنةُ لحيوات متنافرة: اتحاد الدرجات المختلفة للَّون الوحيد الذي لن يفنى إلا بفناء الدنيا. ربما ـ تَبعًا لخديعةٍ ما أو انقضاضهٍ غير متوقعةٍ من الخلف ـ تُضاف درجةٌ جديدةٌ من اللون الدموي لن يحيا ليراها؛ لأنها ستكون خاصته. بأحلام تدور كلها في المسافة الضائعة بين حلم يقظةٍ ضيق وتحققه، يبدأ الصيادُ في استنشاقِ الخطر. لا يمل منه رغم ذلك، ويستطيع أن يصنع منه عالمًا كاملًا لأطفاله.

كان يحمل على الدوام كتابًا أو اثنين من الروايات العاطفية ذات الأغلفة الورقية، وربما بعض القصص المصورة. لم يكن مع ذلك عاطفيًّا بشكلٍ خاص أو واحدًا من هؤلاء الذين يتمثلون أشباحهم الخاصة في قصة. كل ما هنالك أنَّه تعود أن يشم رائحة الفريسة أثناء القراءة.

دائمًا تكون المناورة أمام عينيه. هكذا كان عهدة الصامت: ألا يقتل أحدهما الآخر من الخلف، وغالبًا ما تُنهي الطعنةُ الترقب قبل المراحل الخطرة من الاقتراب حيث يعلو الهواء وتهتز الألوان.. ولكن المعطف هذه المرة تلقى رذاذ السائل اللدن المتماسك من لا شيء ـ كما هيئ له – لأنه ظل يبحث عن مصدر الألم غير مصدقٍ أن يكون الفتقُ في جسده.

..في تلك الليلة، لن يعود الصياد بالطعام إلى بـيـته.

أنامل أنثى

لم يكن من المفترض أن نلمح ـ من المقاعد الأخيرة في المس-رح ـ تقلبات الكف السوداء وانثناءاتها الصارمة المدربة في ليل الخلفية السوداء بينما تتحرك الدمى كأنها تبدأ حياتها الخاصة، ولكننا ـ ومثلنا مثل الجميع خاصة أصحاب المقاعد الأمامية الذين راحوا يعيشون الكذبة عن قرب ـ تمكَّنا من رؤية حدود الأصابع الرفيعة، المتطاولة، التي لم يساورنا الشك في أنها لكف أنثى، وهي تنساب في الهواء المعتم فوق رؤوس الدمى، وكان هذا كفيلاً بإخراجنا جميعًا من الوهم الذي ظنناه سيكون محكمًا بلا أخطاء من هذا النوع.

ما حدث أن سواد الخلفية كان أكثر حلكة بدرجة واحدة يصعب ملاحظتها من سواد «الجوانتي»، مما جعلنا ن-تحرك بقلق في أماكننا وقد شغل-تنا الرغبة في اكتشاف الأنثى وتخيلها في تلك اللحظة عن متابعة الطقس المرح.. وقلنا إن هذه الكف تحركنا، نحن، في تلك اللحظة بغلظة، وتعال. الكف المحايدة الملساء تضع المكان المغلق بأكمله تحت رحمتها، وتصبح البطل غير المعلن، الغامض للعرض الذي فقد فجأة كل إثارته، وقد اكتشفنا خواء تلك المخلوقات وعجزها حين رأينا ـ بشكل مشوش ولكنه حاسم ـ الطريقة الآلية التي كانت تمنحها الحياةَ ببساطة، لا سيما أن سوادً الخيوط كان بدوره ينتمي لدرجة ثالثة من الأسود أفتح من الدرجتين السابق-تين، مما جعلنا نتأكد أن ثمة مؤامرة غريبة تُحاك على خشبة المس-رح.

كان علينا ألا نفقد تماسكنا، وأن نجاهد بكل الطرق كي نستعيد من جديد عالمَ الدمى المفقود، خاصة وقد بدا من صوت الموسيقى المتوترة أنه في لحظات تصاعده. ولكننا فشلنا، وقد صرنا نهبًا للأفكار التي لم نعرها اهتمامًا من قبل.. فقد جئنا بالأساس لمشاهدة عرض آخر، وأخبرونا أن تلك الفقرة الإضافية توضع قبل العرض لحين اكتمال الرواد، وندمنا أننا لم نأت بأطفالنا معنا ولكننا تذكرنا أن العرض المفترض الذي جئنا من أجله كان محظورًا على الأطفال.. وها هي الصالة تكتظ عن آخرها منذ أكثر من ساعة دون أن تنتهي تلك الفقرة أو يصيب الكلل كفي الأنثى السوداوين.

بدت الكفان كأنما تديران عالمًا كاملًا بلا إضاءة. تدوّخانه باتجاه السقوط. كُنا في هذا الحلم العاصف قد فقدنا الأمل في عودة الإضاءة أو توقف ذلك الكابوس السادي، ولكننا اكتشفنا أننا صرنا مأخوذين بما يحدث حتى أننا بدأنا نتمنى في أعماقنا ألا ينغلق الستار، واكتشفنا السكينة التي سكنت عيوننا في هذا الظلام الموحي، وأصبح التف-تيش عن الأجساد والظلال وتخيل الرسوم مثيرًا في العتمة، وبدأنا نكتشف تدريجيًّا درجات جديدة من اللون الأسود في نتوءات الجدران ونقوش السقف المقبب والشمعدانات الخالية في الأركان، كل تلك الأشياء التي بدا المكان معها ـ لدى رؤيتنا له لأول مرة عند دخولنا المشوش ـ مكانًا للعبادة.. قبل أن نصل للاكتشاف المثير الذي ما كُنا لنبلغه ما لم نجرب التحديق في الظلام: كان جسدُ الأنثى عاريًا تمامًا ولكنه مدهون بدرجة رابعة من الأسود.. ورأينا تفاصيله الدقيقة، وقد راح خيالنا يكمل ما عجزت عنه أبصارنا، وتوتره الذي لا يخلقه إلا جسد عارٍ حتى لو تيقن صاحبه أن لا أحد يراه.

كف-ان خالدتان، تن-ته-ي-ان بذؤابات شمعي-ة، قاسي-ة.

واثقـتـان وحُرتان تحت خدعة أن لا أحد يعيرهما الـتفاتًا.

متعجرفتان ولكن فيهما ضعف أعمق نقطة في قلب الأنثى التي تحركهما.

في الفجر.. فقط في الفجر ومع ارتفاع الهمهمات وعودة الدنيا لجلبةٍ جديدة، وبينما بدأنا نستقبل الضوءَ بعدوانية وإحباط، كأننا نملك حلمًا واحدًا بدأ يُسـرق مِنَّا.. اختفى كلُّ شيء. أخذنا نفكر ونحن نحدق في أكفـنا الآن: بأصابعنا سندفع الهواء باتجاه البيوت.. بأصابعنا نزيح يومًا آخر عن كاهل الدنيا.. بأصابعنا نتلمس الأماكن المضيئة التي نعرفها ونطمئن إليها، بين الشهيق والزفير وأشباح الغرف.

بأصابعنا هذه، الآن، في هذا الصباح الجديد: نحرك الهواء لأعلى ونزيح سماءً جديدةً عن طريقنا.

تحريـك

..كان مليئًا بالصور، وبمجرد أن يتنفس، كانت آلاف المشاهد المتحركة تـتساقط من جلبابه، لـتبدأ حياتها الخاصة بعيدًا عن أسـر مخيلـته.

استطاع ذات مرة أن يحرك السماء حين رفع لأعلى مشهد البطل وهو يقبل البطلة، وبتثبـيت أطراف أصابع أقدامه لثانيةٍ واحدة، كان يتمكن من التحليق الخفيف فوق النعوش النحيلة لضحايا قصصه. وبازدياد جمهوره تطوَّر أداؤه حتى تمكن من إضافة الأصوات لسكون شاشـته، فحوَّل الموت من انهيار صامت إلى الطقس الوحيد ذي الشأن لهياكل أصحابه.

في مشيه المتئد، كانت الأشباح تبدأ تحركاتها من حولـه، كأنها حيَّة، وكأن الأبطال ـ الذين لم يكونوا سوى بقايا ألوان منحها الهواءُ حياتها المتخيلة ـ هم الكائنات الوحيدة الحقيقية في الدنيا الـتي خلقـها كل من اقـتفـوا أثره.

..هذه هي الأشياء التي صنعها ليتخلص من إرثه الذي أفسد أمعاءه، حين فـشـل في العثور على مقبرةٍ مناسبة يعرض فيها مشهد موته.

الحياة المكتوبة مرتين

تنبأت لي عرافة في طفولتي بأن خطِّي الجميل سيكون لعنتي الأبدية. كنت في الثامنة، أجلس وحدي على شاطئ البحر.. وكتبتُ على الرمل اسمي بالخط الكوفي والفارسي والديواني. كنت أنظر في الرمل حين فوجئت بقدمين معروقتين قاسيتين تدوسان اسمي، تمحوانه.. بالتزامن مع موجة عنيفة جاءت لتبل الرمل وتغرق القدمين.. كأن الكون قد تآمر على محو اسمي.

رفعتُ عينيّ، ورأيت المرأة الأكثر شيخوخة في هذا العالم.. زرقاء، ترتدي ملابس مهلهلة. شعرها أبيض ومحلول ومُلقى للأمام حتى أنه أخفى وجهها تمامًا. قالت لي: «أنت تريد أن تفنى.. أنت تريد أن تموت». لم أُجبها. نَزَلَت من عليائها وجلست بجواري. نكَشَت الرمل كالمجذوبة فعاد اسمي للظهور من الخواء، مكتوبًا كما كان بالخطوط الثلاثة. كأن قدميها لم تمحواه. كأن البحر لم يحوله إلى عدم.

قالت لي: من أنت؟ فقلت إنني لا أملك سوى ما تراه.

كنت بلا أس-رة. وُجدت في خان مع رجل عجوزقال إن أهلي ائتمنوه عليَّ قبل رحيلهم ولم يزد أبدًا حرفًا على هذه العبارة الغامضة التي صارت من حينها تاريخي الوحيد.لا أعرف حتى الآن إن كان الرحيل كان بمعنى السفر أم الموت.. كان خطاطًا، يعيد نسخ المخطوطات التي تصله.. سواء كانت أعمالاً ستخلد لكتاب العصر أو خطابات غرامية لفتيات سيئات الحظ رغم أنهن على الدوام جميلات.

بعد عامين من لقائي بالعرافة صرت خطاطًا رسميًّا في الخان. أوكل إليَّ الرجل في البداية أمر الخطابات الغرامية والأوراق التي لا أهمية لها سواء للدولة أو للتاريخ ورغم أنه كان بذلك يحرمني من شهرة مبكرة، فإنه أيضا كان يجنبني الخطر.. ولكنه ما لبث أن ترك لي كل شيء حيث اشتد عليه مرض غامض صارت معه يده تلازمها رعشة لا تتوقف. كنت أعرف أن هذا قدر أي خطاط.. تموت يده أولاً كعلامة على موته الوشيك القادم. هكذا بدأت شهرتي تذيع كأصغر خطاط ـ والأكثر مهارة في الواقع ـ في البلاد. وبعد عامين آخرين توفي صاحب الخان ومعه س-ر وجودي كله.

في لحظات احتضاره طلب مني صاحب الخان أن أقترب منه، أمسك يدي بيده وقرب فمه من أذني حتى أن أنفاسه الثلجية الأخيرة اخترقت أذنيَّ. قال: أنت تريد أن تعرف من أنت.

قلت: لا.

كنت أعرف أنه في سنوات عمري الثمانية عش-رة التي بلغتها لن يكون مجديًا أن أعرف أي أب لي وأي أم، وكنت في الحقيقة قد تأكدت أن السنوات التي يكوّن فيها المرء مشاعره الأساسية تجاه من حوله قد ولَّت. ومن ناحية أخرى، كان غموض قصة حياتي قد منحني الفرصة في حرية الكذب بخصوص نشأتي حين أتحدث للبنات الجميلات، دون أن أكون ملومًا.. ولم أكن على استعداد لتحمل صدمة أن يكون أبواي فقيرين، أو أكتشف أنني ابن زنا. لم يلح الرجل في طلبه، كأنه كان ينتظر رفضي ليخلص ضميره وحسب من عبئي. أوصاني على الخان من بعده، وقال لي:

ـ لقد تركت خلفي مخطوطات عديدة لم يكتمل نسخها.. غير أن أخطرها على الإطلاق هو هذا.. ثم مد يده وأخرجه من تحت وسادته. منحه لي، مع مخطوط آخر يحمل ما نسخه منه، ثم أكمل: «..وعليك أن تكون حذرًا.. فلن ترى صاحبه أبدًا، لأنه الموت نفسه.. وسيكتفي بإرسال فتاة جميلة بلا اسم نهاية هذا الشهر لتستلم الأصل والمخطوط المنسوخ». وأكمل الرجل بصوت مرتعش: «هذا المخطوط فيه حياتك وموتك.. فإن لم تنجزه في موعده المطلوب فسيكون مصيرك هو الموت.. لقد حاولت دائمًا أن أجنبك هذه المخاطر غير أنك صرت وريثي الوحيد.. وأراك قد كبرت وصرت مهيأً لمواجهة الخطر».. بعدها أغمض الرجل عينيه للأبد.

وجدت نفسي مطالبًا باستكمال المخطوط السري الذي بدأه الرجل ولم يكمله. بدأت بتصفح المخطوط الأصلي، ولكني فوجئت بأن صفحاته بيضاء، خالية من أي حرف، وبجانبها المخطوط الذي ينسخه الرجل.. وانتابني شعور بالرعب؛ حيث لم أعرف ما الذي كان الرجل ينقله بالضبط من تلك الصفحات البيضاء.. وشغل حياته طيلة العامين الأخيرين. بدأت أقرأ ما كان الرجل ينسخه في مخطوطه.. وصفحة بعد أخرى انتابني الذهول، بل الرعب.. كان الرجل يكتب قصة حياة طفل يتيم آل إليه أمره وصار خطاطًا.. في الحقيقة كان الرجل يخط قصة حياتي أنا بالذات.. ولكن كتابته انتهت عند اللحظة التي أحياها الآن.. وأنا في الثامنة عشرة من عمري. رغم ذلك لم يقل من هما أبواي ولا كيف ولدت.. وإن كان كتب أسرارًا عميقة تخصني ظننت أن لا أحد غيري يعرفها، ومنها لقائي الغامض بالعرافة والذي لم أخبر أحدًا به. ما الذي كان الرجل سيكمله؟ هل يحوي المخطوط قصة حياتي منذ ولادتي حتى لحظة موتي؟! أصابتني الصاعقة في مقتل، فقد كان عليَّ أن أنسخ حياتي بالذات، إلى جانب أن حياتي هذه نفسها كانت في المخطوط الأصلي عبارة عن صفحات خالية.

رحت عبثًا أقلب في الأوراق الفارغة.. لم يقل لي الرجل كيف كان يعيد نسخها.. ولا يوجد من أسأله.. فلا أعرف لهذا المخطوط صاحبًا.. تتبقى أيام ثلاثة على تسليم المخطوط كاملاً، والموت هو مصيري الوحيد. فجأة.. برزت في ذهني فكرة غريبة.. إذا كانت الحكاية التي في المخطوط هي حكايتي.. فلأتخيل بنفسي حياتي المقبلة.. فأنا في كل الأحوال ميت. شعرت بأنني مقبل على لعبة مثيرة، وكنت كلما تذكرت كلمات صاحب الخان الخاصة بحياتي المعلقة على هذه المهمة أرتعد وأشعر أن الموت قريب مني للغاية.

بدأت الكتابة. كنت في البداية أكتب عبارات بسيطة من تلك التي يمكن أن تعبر عن حياة أي شخص في الدنيا، ولكن اللعبة ما لبثت أن جذبتني وانهمكت فيها بكل جوارحي، مرت الأيام الثلاثة ولم أكن قد كتبت سوى صفحات قليلة، فانكمشت من الرعب.. ولكن لحسن الحظ، مرت الليلة التي انتظرت فيها الإطاحة برقبتي دون أن يأتي أحد. بعدها زاد إحساسي بالأمان فرحت أكتب بانسيابية أكبر، وبخط جميل متقن لم أكتب مثله في حياتي. كنت أؤلف لنفسي حياة لم أعشها، سافرت بلادًا وعرفت أعداء وأصدقاء.. ومع كل مرحلة في حياتي كنت أنوّع الخطوط حتى صارت تلك الخطوط تشبه تموجات حياتي التي رحت أؤلفها كأنني أكتب عن شخص آخر عاش ومات بالفعل قبل أن أجيء أنا للوجود. لا تريد الحكاية أن تنتهي.. ولا أحد يجيء.. مرت سنوات وسنوات وأنا أكبر في الواقع مثلما أكبر في الحكاية.. حتى جاء يوم فوجئت فيه بيدي

ترتعش كلما كتبت سطرًا، وبدأت تعصيني بينما كنت في المراحل النهائية من كتابة حياتي. هنا عرفت أنني قد بلغت الشيخوخة وصرت على وشك الموت.

لا أعرف كم مضى من العمر.. كل ما كنت أعرفه أنني أتممت أخيرًا كتابة حياتي التي انتهت بتسليمي المخطوط لصاحبته دون أن أنتظر ثوابًا أو عقابًا؛ لأنني، وكما كتبت في المخطوط، مت بعد تسليمه مباشـرة في سـريري.. هكذا أنهيت حكايتي في المخطوط. لحظة انتهائي؛ فوجئت بطرق على الباب، فتحته بلهفة، وجدت امرأة مغطاة الرأس تقف قبالتي مادة يديها الاثنتين، عرفت من إشارتها أنها جاءت في طلب المخطوطين: الأصلي، وذلك الذي أكملتُ كتابته. قلت لنفسي: هذه إذن هي الفتاة التي حدثني عنها صاحب الخان قديمًا، لكن.. هل ما زالت فتاة؟ وما الذي فعله بها الزمن؟ ولأنني لم أعد أملك ما أخسـره فقد كشفت وجهها بكل ما أملك من قسوة، ولكنها لم تفاجأ بما فعلت، ولم تحاول منعي. في هذه اللحظة رأيت أمامي الوجه المبتسم للعرافة التي زارتني في طفولتي، محتفظة بشيخوختها وبلمعة العينين اللتين تقرآن حياة الناس القادمة.

اتسعت ضحكتها بمجرد أن صار وجهها مكشوفًا.. حتى هُيِّئ لي أن المدينة بأسـرها قد سمعتها، بدأت تقلب المخطوط بين يديها، وهي تطالع خطي الجميل. طلبت مني المخطوط الأصلي، فقدمته لها.. فتحته وقالت: «أقرأ». قلت لها إن صفحاته بيضاء، فأتت بضحكة ماجنة أعنف من سابقتها، وفتحته أمامي بنفسها.. فوجئت بكل صفحاته مكتوبة.. أخذت أقرأ صفحة بعد الأخرى وفوجئت بأنني كتبت بالضبط، وبنفس الصياغة، قصتي التي في المخطوط الأصلي.

حكاية رجل عجوز كلما حلم بمدينة.. مات فيها

أيقظه صفير القطار بينما كان يحلم بمدينة تطل على البحر.. واندهش؛ لأنها المرة الأولى التي يستيقظ فيها من حلم قبل أن يرى مشهد دفنه. كانت تلك أيضًا المرة الأولى التي يوقظه فيها باعث واقعي، فطوال سنوات مديدة فشلت كل الأصوات، والمحاولات اليائسة لزوجته، في إخراجه من مناماته.

أول شيء فكر فيه هو هذا القطار نفسه، القطار الوحيد في المدينة، والذي يكرهه تمامًا، فهو صغير، يعود لبدايات قرن مضى، ويُذكِّره ـ كلما رآه من نافذته ـ بنعش أصفر. كل سائقي هذا القطار كانوا أصدقاءه بشكل ما. كلهم ينتحرون بعد فترة قصيرة من العمل، ويتركون الآلة المعدنية البدائية تترنح وحدها للحظات، قبل أن تتوقف عجلاتها فجأة.. قبالة شباك غرفة نومه، وحيث يكون دائمًا قد استيقظ قبلها بدقائق.

فكر أنه بحاجة لسيجارة، فتحسس جيب جلبابه، حيث ترك علبة سجائره آخر مرة قبل سنوات، منذ نام آخر مرة. بعدها ثبت طاقم أسنانه، فقد كان يطمئن فور استيقاظه عليه، ويثبته بسرعة بينما تعود له الحياة أخيرًا، كأنه كان نائمًا بدون فمه. لا يستطيع التدخين بدونه، رغم أنه لم يكن يحتاجه لمثل هذه المهمة.

كان قد بدأ يغيب في اليقظة، عندما استدار فجأة، مرعوبا، على كف أليفة وهشة، واحتاج وقتًا ـ كما يحدث في كل مرة ـ كي يتعرف على وجه المرأة التي شاركته حياته. لمح في عينيها الدموع المتفق عليها التي كانت تواجهه بها بعد كل مرة يعود فيها سالمًا من نومه. بعدها تركته واستدارت لشئون البيت، عائدة للامبالاتها التي تعود عليها.

زوجته لم تكن تعبأ بوجوده، ليس لأنها تكرهه، بل لأنها أكثر شيخوخة منه.. لكنها على العكس منه تمامًا، كانت بلا أحلام على الإطلاق. لم تر طيلة حياتها صورة واحدة في منام، ولم يؤرقها ذلك أبدًا.

عندما اخترق القطار منامه، كان غارقًا. انتشلته الأيادي بالكاد من قاع البحر وبدأت الهمهمات تدور حول طريقة دفنه.. واستيقظ الرجل وهو لا يعرف أين مقبرته في تلك المدينة الساحلية.

ظل متحيرًا، يفكر في أنها المرة الأولى التي يوقظه فيها صفير هذا القطار.. يفكر في جثمانه الذي في تلك المدينة الساحلية البعيدة، لا يعرف كيف دفن ولا أين.

وصله صوتها المتسائل من الصالة بحياديته الأليفة: كيف مت هذه المرة؟

كانت تسأله كلما استيقظ عن طريقة موته، غير عابئة بطريقة حياته.

لم يجبها، وزاد شعوره بالغيظ والخجل.. ولكنه ارتاح قليلاً عندما مرت دقائق دون أن تكرر السؤال، رغم أنها ـ منذ تزوجها ـ لم تكرر عليه سؤالاً أو ملحوظة.

لم تكن زوجته مجبرة أن تصدق أنه كان يحلم بمدن كثيرة، كانت تتعامل مع الأمر كقدر لا يحتاج للتفكير به أصلاً.هو أيضًا لم يكن مضطرًّا ليصدق، ذلك أنه لم يكن يحتاج للتصديق.. فكلما حلم بمدينة كان يستيقظ ليكتشف أنه يعيش فيها. يستيقظ في سريره نفسه، في غرفته ذاتها، لكن في مدينة أخرى.. يعرف ذلك عندما يمد رأسه خارج

الشبابيك، ويكتشف أنه يطل على جغرافيا لم يتنسم هواءها من قبل. فيخرج مغادرًا الشقة الشبحية وظل زوجته إلى مدينة جديدة.. يواجه هواءها كأنه يولد.

يتجول في المدن التي يحلم بها، يبحث عن مهن صغيرة رغم شيخوخته، ليأكل، ثم يموت. يستغرق ذلك أوقاتًا متراوحة، قد تكون أيامًا أو شهورًا أو سنوات.. بينما جسده - في نفس اللحظة - مسجًّى في سريره. كانت زوجته تضطر لإطعامه وهو نائم كي لا يموت في سنوات أحلامه.. وتضع له السجائر في فمه، تشعلها له وتراقبه وهو يلتهمها بنهم، كأن الدخان يشحذ صور مناماته. لم يكن طعامه هنا يعني شيئًا لجوعه هناك..مثلما لم تكن حياته هنا تتعارض وموته هناك. لكنه أدرك، منذ سنوات طويلة، أن واقعه الفعلي صار في كل الأماكن خارج هذا البيت.. وأنه لو كان ثمة حلم في حياته، فهو مدينته وبيته وزوجته، وقطار البضائع.

مات في كل المدن التي عاش فيها، ودفن. واجه ميتات مختلفة، في حوادث طرق، مطعونًا، في مشاجرات، حانات، بسكتات قلبية ودماغية، في مساجد وكنائس.. ومات أيضًا الميتات العادية التي يموتها الناس على أسرتهم، له في كل مدينة شاهد قبر، وتلاوات تطلب الرحمة لروحه ولو بطريق الخطأ. صار ترابًا منثورًا في أنحاء الدنيا، ذكرى في كل الأرجاء، رغم أنه لا يزال حيًّا، هنا، في تلك المدينة بالذات. داخل بيت ما.. بيت واحد، بغرف محددة لا تتغير، له امرأة بعينها. رجل مثل أي رجل، يحيا في مكان واحد، حتى لوتفرعت من هذا المكان أماكن أخرى: بيت، غرف، مقاهٍ، وشوارع غير منتهية. رجل كأي رجل يحيا في مدينة، لا يشترط أن تكون مثل أي مدينة، غير أنها تبقى مدينة واحدة، ولها ميزة لا يمكن أن يشاركها فيها مكان آخر، أنها مدينته. رغم ذلك، هو رجل يحلم في كل مرة بمدينة، يؤسس فيها بيتًا في منامه، وتكون له فيها مقبرة عندما يستيقظ.. غير أنه هنا لم يمت أبدًا. ظل رجلًا عجوزًا بحياة مضاعفة، تؤكدها ميتاته التي صار يعرفها كلها.

ولأنه جرب الموت في أماكن كثيرة، لم يعد يخشاه، بل تمناه في وطنه، لأنه شعر بالخجل من أن يموت في كل البقاع ماعدا سريره. لقد ظل الموت دائمًا بعيدًا عنه، وكان الرجل - على العكس من جميع البشر - ينتظرمجيئه، ليس بخوف أو رهبة.. لكن بتصالحٍ عذب، وبأمنية أكيدة أن يتذكره قبل أن يتحول لكومة عظام حقيقية داخل جلبابه.

إنه عجوز لدرجة أن ذكرياته نفسها شاخت وماتت في العمر الذي تموت فيه أشد الذكريات قدمًا.الذكريات التي كالبشر. الذكريات التي تموت بالضرورة، حتى قبل موت أصحابها. تموت في حوادث عارضة، في الطفولة والشباب والكهولة، تُقتل أحيانًا وتنزف منها دماء لا نراها. بعضها يُدفن وبعضها يُترك في الطرق. فقط عندما تكتب الذكريات تعيش، بالضبط كما يحدث للبشر. ذكريات هذا الرجل لم تكتب أولاً بأول، وعندما تكتب - إن حدث ذلك - فستحرف، ولن تعود أبدًا على علاقة بذلك الذي حدث بالفعل.عليه ألا يقنط، وعلينا جميعًا. لا ذكرى تشبه الواقعة. كان يقنع نفسه كلما فشل في تذكر شيء بأن الذكرى خيال شاحب لواقع لم يحدث.

ربما لذلك، كان يتذكر أشياء قليلة ، تؤكد له - فقط، وبيقين مضاعف - أنه لم يعد يملك ما يتذكره.. وتخبره في كل مرة أنه شخص نسي كل شيءٍ تقريبًا، فيما عدا ميتاته.. من هذه الذكريات مدينة حوائط لا نهائية، مات فيها مبكرًا جدًّا، غير أنه ظل غير قادر على

محو ذكراها. مدينة لا تعرفها الخرائط التي كان يعود إليها بعد كل يقظة ليعرف على وجه الدقة أين عاش ومات آخر مرة.

حَدَّث عنها زوجته كثيرًا.. كانت ـ كما كان يقول مأخوذًا ـ أقرب لغرفة شاسعة. أينما سار الشخص فيها يصطدم بالحوائط، الحوائط التي يمكن للواحد أن يجدها في أي بيت وليس في مدينة. عليها صور السكان في براويزها، صور الشهداء والموتى المتربة بشرائط الحداد السوداء المائلة، آيات قرآنية، وصور قديسين، ولوحات زيتية، بألوان الطلاء الكثيرة، بل مفاتيح كهرباء محفورة. ليس سوى ملايين الحوائط التي يمتلكها الجميع بالتساوي. بالمقابل، تخلو البيوت من أي ذكرى معلقة. بل إن حوائطها ليست سوى جدران جرداء، وعملية، من تلك التي تألفها في المدن. يمكن لأي عابر أن يفتح باب أي بيت، ويعطي ظهره لأفراد الأسرة، ويدفق بوله الساخن أسفل الجدار. داخل البيوت توضع الملصقات الإعلانية، والأوراق الانتخابية، وتحضر الكتابات المرتجلة للعابرين، وأفيشات الأفلام. إذا أردت أن تعرف أخبار المدينة فادخل البيوت.. وإن أردت بيوتها، فليس عليك سوى أن تتجول.. لترى العاديين على الحوائط. في كل بيت في المدينة غرفة تستخدم كمقبرة، وقد دفن في واحدة من تلك الغرف، محصنًا بالجدران، ثم محصنًا بالحوائط في الخارج، وهي الميتة التي كانت الأكثر مثالية له حتى الآن.

مدينته تتغير. هكذا فكر الآن وهو يتأمل صفوف بيوت نبتت مكان أعواد البوص خلف شريط القطار، وبامتداد البصر، في أفق الغيطان الخضراء التي كانت تطوق المدينة. كان يقول ذلك لنفسه كل مرة يطل فيها من شباكه. في الماضي كان الأطفال يدحرجون كرات زجاجية ملونة متناهية الصغر على التراب، ثم جاءت ترابيزة خضراء بمضارب وكرة بيضاء يديرها شاب بالقرب من شباكه. كثيرًا ما كانت الكرة الفلينية ذات الرائحة النفاذة تتسلل من شباكه ويتحسسها بوجل في نومه كأنها بيضة سحرية، ويظل قابضًا عليها إلى أن يستيقظ، ولا تعرف زوجته ماذا تقول لأصحابها، فتضطر لتوبيخهم، قبل أن تمنحهم ثمنها. الآن تستقر ترابيزة أخرى، خضراء أيضًا، بعصي طويلة وكرات لا تحصى. يرى تلك الأشياء في لحظات يقظته النادرة، والتي كانت تتحقق على فترات متباعدة جدًا، حتى إن أغلب أبنائه ماتوا دون أن يعرف.

أبناؤه الثمانية، أنجب خمسة منهم وهو نائم، بإصرار من زوجته التي كانت تمارس الحب بجسده النائم. نفس الخمسة ماتوا وهو نائم، ولا يذكر أنه ذرف دمعة على واحد منهم.. فقد تعامل معهم دائمًا كما لو كانوا أخطاء تسببت فيها مضاجعات محرمة. الثلاثة الآخرون ماتوا وهو مستيقظ.. وبكى عليهم كثيرًا، فقط لأنه لم يرهم سوى مرات معدودة في حيواتهم الممتدة.

كان يستيقظ كل مرة ليكتشف أنه فقد وظيفةً جديدةً في جسده.. دون اندهاش، لكن بأمنيةٍ أكيدة أن تكون تلك علامة من الموت الذي أدار ظهره له بكل قسوة، وضن عليه بيديه القاسيتين اللتين لا تتوقفان عن العمل.. وبنظرةٍ واحدة على بيوت المدينة، والسيدات المتشحات بالسواد من الذاهبات إلى المقابر والعائدات منها، كان يدرك ـ بحسد ـ أن الموت لا يزال يمارس مهماته بنفس الخفة والنشاط اللذين عهدهما فيه.. وكان ـ وهذا هو الأسوأ ـ يستشعر نظرات حسد مضادة من الأمهات الحزينات على أبناء رحلوا في ريعان الشباب.. وزوجات حديثات ترمَّلن بعد أوقات لذة قصيرة.. يتساءلن عن طول عمره الذي يكفي عدة أشخاص كي يعيشوا ويموتوا في أعمارهم الطبيعية.

أوشك على تصديق الواقعة التي حكتها له أمه في طفولته. لقد كانت أشهر ندَّابة في المدينة الصغيرة ولم يكن الأهالي يعرفون منها سوى الصراخ على من يغادرون الحياة.. وعندما رُزقت به بعد سنوات زواج طويلة بلا نسل، كانت واقعة غريبة.. وأحس الناس أن صـراخها ـ بينما تلد الطفل ـ هو صراخ شخص يودع راحلًا إلى مقبرته وليس صراخ امرأة تمنح الحياة لطفل.. وأيقنت البلدة أن الطفل لن يعيش طويلًا لأنه كان هزيلًا وشاحبًا.. وفضلًا عن ذلك ورثت عيناه عن أمه نظرة الحزن المرعبة التي لم تفارق قسماتها يومًا. أخبرته أمه أنه مات بالفعل ذات يوم، بعد مولده مباشـرة. توقفت أنفاسه وسكن جسده وتيبس قلبه.. ثم برد جثمانه وازرق لونه كأي ميت. أغلقوا عينيه الجاحظتين ولفوه جيدًا تمهيدًا لتوديعه.. ووجدت أمه نفسها ـ وهي التي أدمنت الصراخ على الغرباء ـ تعجز عن التعبير عن ألمها الحقيقي ولو بصرخة، انحبس صوتها وغابت الدموع ـ التي كثيرًا ما ذرفت جبالاً منها بالمجان ـ عن عينيها المتألمتين. وبينما يستعدون لإخراجه من البيت.. عادت الدماء إليه فجأة.. وفوجئوا به يطلق ضحكة شيطانية ماجنة.. شاهد الأهلُ فيها أشباحًا كثيرة تنطلق هاربةً من الغرفة. يومها قال حكيمٌ لأمه: «الأطفال وحدهم يستطيعون ملاعبة الموت وخداعه.. ولكن عقابهم أنهم حين يشيخون يخاصمهم الموت.. يتركهم مُعذبين يتمنون التفاتة واحدةً منه دون أن يعبأ بهم.. بل إنه إمعانًا في إغاظتهم يحصد أرواح الشباب والأطفال أمام عيونهم الميتة».
اندهش العجوز عندما سمع الحكاية من أمه لأول مرة، وسألها لماذا عليه أن يُعاقَب إذا كان حينها لم يكن يعي شيئًا.. ولا يذكر أنه فعل ذلك عن قصد، ولكن أمه قالت له بحسم: «لا يهم كل ذلك.. المهم أنك أهنته وقللت من هيبته وشأنه في أرجاء البلدة.. حتى إنه بعد ذلك لم يعد الناس يصدقون إذا رحل شخص أنه مات فعلاً.. وصار كل ميت جديد ينتظر أيامًا إلى أن يدفن.. لأن الأهالي كانوا ينتظرون عودته للحياة ضاحكًا كما فعلت أنت.. لقد صار الناس من يومها لا يُصدقون الموت وذلك هو أسوأ شيء يمكن أن يحدث لذلك الرجل المهيب الذي لا يقول كلمته مرتين».

في طفولته وشبابه استمتع بالحكاية، بيقين أن الخلود هو حلم أي إنسان. كان سعيدًا لأنه جرب حظه مع الموت مبكرًا وانتهى الأمر.. معتبرًا ما حدث معه معجزة ستصب في صالحه.. غير أنه ـ ومع تقدمه المفرط في العمر، وبعد أن مات أحفاد أحفاده في أعمارهم الطبيعية ـ أدرك أن الخلودَ وهمٌ قاس.. لأن لاشيء أكثر إيلامًا من أن تحط ذبابة بين عينيك دون أن تكون قادرًا على هشها... وأدرك الرجل أن الموتَ جادٌّ في انتقامه منه، وأن الحل الوحيد هو أن يُقتَل..و لكنه عاد ليكتشف بحسـرة أنه لم يعد يقوى على الإتيان بشيء: لا أن يقتل نفسه، ولا أن يفتعل مشاجرة أوحتى يستأجر شخصًا ليقتله. فقط في أحلامه كان يغيب تمامًا.. ولكنه كان دائمًا يستيقظ مهما طالت رحلته المؤقتة في الأبدية.

بمجرد استيقاظه، كان يسأل زوجته عن أسماء من ماتوا أثناء غيابه، ليقدم فيهم واجب العزاء.. رغم أن بعضهم يكون مر على موته سنوات ونسي حتى أقاربه حقيقة موته. كان يقضي اليوم بطوله في مواساة ناس لم تعد تعوزهم هذه المشاعر، ويشـرب مئات الفناجين من القهوة المرة. وبمجرد أن يعود كان يتقيأ ـ بلا انقطاع، ولساعات ـ السائل الداكن الذي لا يزال محتفظًا برائحته. كان يعبر البيوت في أيام عزاءاته الغريبة غير مصدق أن هناك من يموت في هذه المدينة. ويتذكر ذكرى وفاته في مدينة ما.. أو أكثر من ذكرى متزامنة. كانت له ست ميتات وقعت في اليوم نفسه.. وأحيانًا كان يغيب في

عمليات إحصائية عقيمة وهو يصنف ميتاته حسب السنوات التي وقعت فيها أولا، ثم الشهور، فالتواريخ، وأسماء الأيام، ومواقيت الوفاة، وأسبابها. ورغم أنه فقد ذاكرته تقريبًا فإنه لم ينس قط يومًا مات فيه. كان يشعر في تيقظاته المتعبة أنه تراب متيبس داخل جلباب، ويحسد التوابيت المتجهة لمقابر تخـص أبناء ذلك التراب، من ولدوا فيه وماتوا عليه، متحسـرًا على ميتاته اللقيطة.

لم يطلب من زوجته اليوم أي أسماء لموتى، وظلت الورقة التي كتبت فيها أسماء الراحلين في منامه الأخير مدسوسة في صدرها، كما تعودت أن تفعل، رغم ما يتركه لها ذلك من خوف مجهول، كأنها تتجول بصحبة الموتى.

توقف صفير القطار، وبدأ يتحرك ذاتيًّا مغادرًا الشـريطين النحيلين، فأدرك الرجل أن سائقًا جديدًا قد انتحر. في هذه اللحظة نادى على زوجته، وقد أكدت له العلامة الغامضة أنه سيموت أخيرًا، ولكنها لم ترد. تحرك بصعوبة حتى وجدها في الصالة، نائمة على ظهرها بجسد أزرق.. ويدها متيبسة على ورقة، مرفوعة باتجاه عينيها، كأنها كانت تقرأ شيئًا. لم يشعر بأي شيء غير عادي. ظل يتأملها كأنها تلك هيئتها الوحيدة الأليفة لديه.. وبدأ يستوعب دون وجل أن الشيء الوحيد الذي يربطه بهذه المدينة غاب للأبد. بهدوء فكر في أن مدينة حلمه القادم يجب أن تشهد ميتته النهائية، الحقيقية.. وفي هذه الليلة فقط، وللمرة الأولى منذ ولد، حلم بمدينته.

الكاتب في سطور

طـارق إمـام

روائي مصـري، من مواليد 1977/8/12، حاصل على ليسانس الأدب الإنجليزي من جامعة الإسكندرية عام 2000، ويعمل صحفيًّا بمجلة الإذاعة والتليفزيون القاهرية. فضلاً عن القصة والرواية، وكتابته في النقد الأدبي.

أصـدر ستة كتب:

1. طيور جديدة لم يفسدها الهواء، قصص، دار شـرقيات، القاهرة، 1995.
2. شارع آخر لكائن، قصص، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1997.
3. ملك البحار الخمسة، قصص للأطفال، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2000
4. شـريعة القطة، رواية، دار ميريت، القاهرة، 2003.
5. هدوء القتلة، رواية، دار ميريت، القاهرة، 2008.
6. الأرملة تكتب الخطابات سـرًّا، دار العين، القاهرة، 2009.